شهادات على العصر

الدكتور عبد الوهاب التازي سعود

شهادات على العصر

عبد الوهاب البازي سيعود

* صورة الغلاف: الممر الداخلي لثانوية مولاي إدريس
وعمق الصورة يعكس منظرا عاما لمدينة فاس
* تصميم الغلاف: عمر بن سودة
* رقم الإيداع القانوني: 2016MO2969
* ردمك:3-153-38-9954-978
* جميع حقوق الطبع محفوظة
* طبع وتصميم: مطبعة آنفو –برانت، 12 شارع القادسية – الليدو – فاس
* الهاتف: 06.61.20.16.41/05.35.64.17.26/ الفاكس 05.35.65.72.47
*البريد الإلكتروني: infoprintfes@gmail.com

مقدمة

هذه كتابات تتعلق بشؤون الحياة؛ لم نرد بها أن تكون مذكرات جامعةً مستفيضةً، وإنما أشرنا فيها بإيجاز؛ ربما يكون مخِلا في بعض الأحيان إلى مواقف وحالات وأفكارا مختصرة مجملة.

فقد تحدثنا عن المسيد، والدراسات الأولى في المدرسة المغربية، ثم في القرويين، وما تبعها من دراسات حديثة في المدرسة الجديدة، وثانوية مولاي إدريس، إلى أن التحقنا بالتعليم العام، الذي تدرجنا في أسلاكه الثلاثة: الابتدائي، والثانوي، والعالي.

ولم نهمل ما أحاط بذلك من الحوادث التي أشرنا إلي بعضها لأهميتها؛ كجمعية قدماء ثانوية مولاي إدريس، والتعليم الثانوي للبنات، مع بعض العادات في التفكير والحياة التي كانت جارية في ذلك الوقت.

كما أخص بالذكر، الشاعر الكبير الدكتور مانع سعيد العتيبة، الذي له أياد بيضاء على الثقافة العربية، بتفضل أجهزته الثقافية على إصدار هذا العمل وغيره إلى الوجود.

ولا يفوتني أن أشكر بهذه المناسبة، أخانا الأستاذ الدكتور محمد العلمي، وصهرنا وصديقنا الشاعر الأستاذ عبد الكريم الوزاني، وأخته زوجتنا لالة عائشة، وكذلك حفيدتنا الطالبة الجامعية؛ مها التازي سعود.

كما أعتذر لجميع إخواني وأخواتي، الذين لم أشر إليهم؛ ولعل ذلك سيكون في مناسبات مستقبلية، إن شاء الله وبحوله.

د. عبد الوهاب التازي سعود

أَلا حَبَّـــذا صُـــحبَةُ المَكتَـــبِ وَأَحبِـــب بِأَيّامِهِـــا أَحبِـــبِ

وَيـــا حَبَّـــذا صِـــبيَةٌ يَمرَحـــو نَ عِنـــانُ الحَيـــاةِ عَلَـــيهِم صَـــبي

كَـــأَنَّهُمُ بَسَـــماتُ الحَيـــا ةِ وَأَنفـــاسُ رَيحانهـــا الطَيِّـــبِ

يُـــراحُ وَيُغـــدى بِهِـــم كَـــالقَطي عِ عَلـــى مَشـــرِقِ الشَـــمسِ وَالمَغـــرِبِ

إِلى مَرتَـــعٍ أَلِفـــوا غَـــيرَهُ وَراعٍ غَريـــبِ العَصـــا أَجـــنَبي

وَمُســـتَقبَلٍ مِـــن قُيـــودِ الحَيـــا ةِ شَـديدٍ عَلـى الـنَفسِ مُستَصعَبِ

فِـــراخٌ بِأَيـــكٍ فَمِـــن نـــاهِضٍ يَـــروضُ الجَنـــاحَ وَمِـــن أَزغَـــبِ

مَقاعِـــدُهُم مِـــن جَنـــاحِ الزَمـــا نِ وَمـــا عَلِمـــوا خَطَـــرَ المَركَـــبِ

أحمد شوقي

ثقافتنا والعولمة

الثقافة هي التي تمنح الأمة طابعا المتميز والمميز، في فهمها لحقيقة الحياة والتزامات الإنسان، وتثبيت مركزه في المجتمع، ومعرفته علاقته بالغير.

الثقافة هي النموذج الجماعي من العيش، والنمط الذي يتجلى في مجموعة من المعتقدات والأساليب والقيم والرموز التي تكون الاختلافات بين الشعوب.

وهي نظام المعايير المشكّلة لنظام العقل والسلوك في مجتمع ما، تحدد نظرة الفرد والجماعة لنفسها وللآخرين، وللكون من حولها.

والعولمة اليوم، هي نتيجة التطور العلمي والصناعي والتكنولوجي والفردي السريع، تكون ظاهرة التوحد الاقتصادي والثقافي باعتبار تطورات وسائل الاتصال والمعلوميات، مما هو جزء لا يتجزأ ولا يغفل في بنية الحداثة، سواء منها الحداثة الاقتصادية أو الاجتماعية أو الثقافية، إنها الزيادة المتنامية في وتيرة التداخل والتعامل الضيق بين المجتمعات البشرية.

ومع العولمة نجد الحداثة التي أيضا مفهوم الحضاري شمولي يمس كافة مستويات الوجود الإنساني، فهناك حداثة تقنية، وحداثة اقتصادية، وسياسية، واجتماعية، وثقافية، وفلسفية؛ وكلها تكون دينامية تقتحم كل هذه المجالات والمستويات وتسمها بطابعها التحولي المتغير.

وهناك فرق بين زمن الحداثة والزمن التقليدي باعتبار أن الحداثة تمتاز بكثافة الأحداث وتسارعها، وتتجه نحو المستقبل معرضة عن التراث وشروطه وسيره البطيء المتغير المتقلب، أم العولمة فهي أعم من الحداثة لأنها تريد أن تشمل كل المظاهر في الحياة ومستوياتها، لأنها مسيطرة غالبة مهيمنة؛ وقد

يعرض الإنسان عن الحديث ولكنه لن يستطيع الإعراض عن العولمة لأنها واجبة حتمية، وهذا ما يلزم التنبيه إليه والإلحاح عليه.

لقد أصبح يقال إن المستقبل الثقافي هو للمجموعات الكبرى أولا: أوربا الغربية والمجموعة الأمريكية؛ وقد عرفنا كيف ضجت فرنسا ذات المكانة الكبرى في عالم العلم والثقافة حينما رأت سيادتها الثقافية تتقلص وتتراجع أمام اتساع الموجة الأمريكية الغالبة المسيطرة، فكل من أوروبا الغربية وأمريكا يتجه نحو وحدة ثقافية عصرية جديدة بواسطة الترابط الاقتصادي المزدهر، وبوسائل الاتصال الكبرى، والحاسوب، والأقمار الاصطناعية، وشبكة الإنترنيت، وكل أنواع الآلات التقنية الحديثة، بحجة أن عصر الأمة المحدودة قد انتهى ليحل محله النظام الجديد الذي يرتكز على التجمعات الاقتصادية الكبرى،والتشكلات المتعددة، وشبكات الاتصال الواسعة،والمعلوميات الحاسوبية، التي تعمل لصالح الكبار، ولا مكان فيها للصغير والضعيف المغلوب المقهور. هذه المجموعات الكبرى أصبحت اليوم تتقاسم خصائص ثقافية مشتركة قائمة قبل كل شيء على الاقتصاد أولا، ثم تقنية الاتصالات ثانيا، ثم على التطور العلمي الذي لا ينقطع مدده.

إذن نحن نعيش اليوم لقاء ثقافيا شاملا بين عالمين؛ عالمنا الخاص بقيمه وفكره وثقافته، وعالم كبير منفتح متطور، لحضارته كل يوم جديد مستمر يؤدي بدون انقطاع خدمات جُلى لصالح الإنسان، ويهيئ له الوسائل لترقية صناعته وتحسين أنواع معاشه.

فما هي في هذا المجال صورتنا عند هذا الآخر الذي أصبح التعامل معه حتميا وهو يقود قافلة الحضارة والعلم والثقافة؟

صورة الآخر تعتمد عموما على الكشف عن بعض آليات الخطاب في عملية تمثيل كل جانب للآخر، أي معرفة الآخر في جميع جوانبه، وكذلك آليات إصدار الأحكام عليه ومحاولة معرفته باعتباره مختلفا عنا اقتصاديا ودينيا ومغايرا ثقافيا، بل خصما حضاريا أحيانا. وهذه العملية تتطلب الإلحاح على فهم تصورات الماضي وامتداداتها، ومعرفة تصورات الحاضر ومواقفه المختلفة وصيغه ذات الالتباس والتوسع البالغين؛ فقد كان الناس يعرفون أن هناك أغيارا ومخالفين، ولكن هؤلاء كانوا بعيدين، نسمع عنهم ونعرفهم بواسطة ما يكتب ويقرأ.

أما اليوم فقد وقع التسارع والتقارب حتى أصبح العالم كما قبل قرية صغيرة، وأصبحنا بواسطة الأقمار الصناعية وشبكة الإنترنيت نعرف ما يجري في حينه، حتى إن مذيع إحدى التلفازات يقول في نفس الوقت: صباح الخير/ مساء الخير، لأن بعض مشاهديه يعيشون في الصباح حين ينصتون إليه، والبعض الآخر في المساء، وبذلك اختلطت الأمور. فما هي بناء على هذا صورتنا عند الآخر؟

صورتنا عند الآخر غير مشرفة. وإن الإنسان ليندهش وهو يلاحظ أن لغيرنا على العموم صورة ناقصة مشوهة عن حضارتنا وثقافتنا، تعيش في أذهان بعضهم وتسيطر عليها، وتجعل اللقاء بين الحضارتين والثقافتين صعبا بل تصادميا أحيانا.

هناك أصوات مغرضة ترتفع لتقول إن الثقافة العربية الإسلامية بجميع أشكالها منتهية، وأخرى تنكر عليها دورها في الحضارة وتطور العلوم؛ فكل العلوم عندهم رأت النور في أوروبا وصدرت عنها، وكل حضارة أوجدتها أوروبا، وما كان في غير أوروبا فإما أنهم يهملونه وينسونه، وإما أنهم يلطفون من

دوره؛ فالحضارة العربية عندهم مثلا عندما لا يستطيعون نكران ما قامت به إزاء الحضارات في الماضي يقولون إنها كان لها فقط دور الموصل والمترجم والناقل، وليس دور المشارك الباحث الفعال. وهذا الرأي كما نرى يغمض حضارتنا حقها، ويهمل دورنا العال في تاريخ الحضارة والعلم والثقافة.

وهناك كثير من الأفكار والأحكام القوية، تسيء إلى الإسلام الذي تنسب إليه الثقافة العربية، فالفيلسوف الألماني هيجل مثلا، في تأريخه وترتيبه للثقافات، وفي تصوره لتاريخ العالم، لا يفرد للإسلام إلا مكانا هامشيبا صغيرا بجانب منجزات العلم الجرماني؛ فيقول إن الإسلام ثورة من الشرق بدأ عظيما ثم ما فتئ أن خمد نوره منذ زمن طويل تاركا ميدان التاريخ الشامل ليسير ببط مسترسلا في سكون شرقي. أن يقول مفكر كبير، لأفكاره قيمة كبرى في العالم الغربي كهيجل هذا في حق الإسلام يجعل الأوروبيين الذين يقرأونه كثيرا يتصورون الإسلام من خلال هذا الحكم الجائر المتحيز، فينكرون عليه كل وجود أو مشاركة في تطور العالم وكل تأثير في حضارة أوروبا وفكرها.

وكذلك كان حكم المؤرخ توينبي الإنجليزي الذي جعل للإسلام مقاما عظيما في التاريخ ولكنه أنكر عليه وعلى الثقافة العربية عودتهما إلى الحياة اليوم، لأنه يعتبرهما تاريخيا منتهيين، كما هو الأمر بالنسبة لعدد من المستشرقين الذين لهم نفيس الأفكار.

فما العمل لإزالة هذه الأفكار المظلمة، وللرد عليها ومحو مفعولها من عقول الغربيين، ولإيجاد صورة صحيحة عن أنفسنا وحضارتنا وثقافتنا، ليعرفنا العالم على حقيقتنا، مبرئين من الشوائب المضللة والتشويه الكاذب الذي يلحقونه بنا نتيجة جهلهم لنا ولأصولنا وفكرنا وتاريخنا.

هذه الأحكام والمعتقدات تروجها وسائل الإعلام القوية، وما أدراك ما الإعلام، وصوت الإعلام في الغرب اليوم، فهو الذي يسير ويوجه. ولو حاول بعض الناس تغيير أفكارهم فإن الإعلام يقف حاجزا منيع دون تغيير الرأي ولو كان مخطئا.

وعلى العموم فالأفكار حينما تتعمق وتستقر في ذهن الإنسان . مهما كان مستواه العلمي والثقافي. تصبح من المتوارث المقرر الذي يصعب أن يتغير إلا إذا استعملت الطرق والمناهج العلمية الحديثة لجعل حد له، وإلا إذا كانت المصالحة والتوافق وحسن النية وسلمت الطبائع. وهذا ما يؤكد أن مجموعة من الأفكار الجاهزة والانتقادات لدى أصحاب كل ثقافة وحضارة في حق غيرها تكون محمية وفي حصن منيع لا يمكن الوصول إليها وتغييرها إلا بجهود علمية مضنية وحركة فاعلة قوية مؤثرة لا تعرف الكلل ولا الملل.

ومن عجب أن تاريخ الإسلام والمسلمين في الشرق والمغرب حافل، كما هو معلوم، بأفكار ومعارف لا يتصورها الأوروبيون. وإذا كانت لهؤلاء اكتشافات واختراعات ينسبونها لأنفسهم على أنها لم تظهر إلا في القرن السادس والسابع والثامن عشر ثم وجدوا لبعضها أحيانا أصولا مهمة ومسجلة لا يمكن أن تنكر في تاريخنا الفكري وفي تاريخ العلوم الإسلامية منذ قرون قبل ذلك، فهم لا يعتبرون هذه الأصول، ولا يلتفتون إليها، فتنسى ولا يحسب لها حساب، لأنها تكسر المنظومة الفكرية المتكاملة لدى الأوروبيين، وتخالفها، وتكذب المعتقدات والقناعات المستقرة في أذهان أصحابها؛ لذلك يسدلون عليها الستار إلى الأبد لأنها تضاهيهم، وهذه هي المركزية الأوروبية.

ولذا قال بعض مؤرخي العلوم: إنهم بنوا صرحا منيعا للتطور العلمي يستهلونه بما ظهر عند اليونان على أنه البداية العلمية الحقيقة، ويستمرون

عبر أوروبا إلى العالم الحديث، أما ما جاءت به الحضارة العربية وقبلها الحضارات المشرقية على العلوم، فقالوا إنما هي خطرات لم تؤسس على الميزان العلمي الدقيق، لأن العلم المنطقي الحقيقي لم يبدأ إلا مع اليونان.

والسبب في ذلك أن اليونان سبقوا إلى التسجيل، وكانت لهم كتابات ومؤلفات لم تندثر، أما ما أنجزه غيرهم في الشرق فقد ورثناه شفهيا فقط، ولذلك فهو لا يرقى في نظر الأوروبيين رغم تنوعه وأهميته الكبرى إلى أن يكون موضعا للمعرفة العلمية الصحيحة، رغم أن الكتابة التي مكنت من ذلك هي من اختراعات الشرق حيث بدأت قبل نحو خمسة آلاف سنة، ولم يخترعها اليونان ولا فضل لهم فيها وإنما ورثوها وتعلموها ككثير من العلوم والمعارف التي ورثوها عن المشارقة.

هناك إذا شبهات كاذبة، وإشاعات وأغاليط مفتراة ضد الثقافة والحضارة والفكر عندنا يجب العمل على تصحيحها وإزالتها ومحوها؛ وهذا في الوقت الذي نعيش فيه شبه تبعية مخلة فنكاد لا نبدع إلا القليل، ولا نشارك في مسيرة الحضارة الحديثة إلا بمقدار غير مؤثر فاعل لحد الآن.

فنحن نتبع المدارس الأوروبية في الفلسفة وفي الأدب في كافة العلوم الإنسانية، ونؤرخ بحسبها، في ازدواجية قاسية متمكنة لم نعرف معها حتى الآن كيف نوفق بين تراثنا الحي وبين الوافد من النظم والمؤسسات والأفكار والقيم التي نعمل بها، وعلى وفقها. وعندنا تشتت في المرجعية العامة، بين المشرق والمغرب، مرجعيتهم في الشرق إنجليزية، ومرجعيتنا في شمال إفريقيا والمغرب فرنسية؛ فنجد مديع المغرب يقول: ميكروفون الإذاعة ومذيع القاهرة يقول: مايكروفون... ولم نتفق بعد في إطار اللغة وحضارتها على المصطلح الموحد الذي يجب أن يكون معمولا به في الشرق والغرب، هل هو ميكروفون أو

مايكروفون على سبيل المثال. وقد يظهر الفرق بسيطا في هذه النقطة لكن هناك أشياء مهمة جدا من وراثة، والدليل على ذلك التشتت المرجعي الذي يعود إلى تعدد الجهات المتبوعة في أدبنا الحديث وفي المصادر الثقافية، مما جعل علمين من أعلامنا الكبار وهما طه حسين ممثلا للثقافة الفرنسية وعباس محمود العقاد ممثلا للثقافة الإنجليزية، يتحدثان ويكتبان حول الثقافتين اللتين ينتميان إليهما ويتخذانهما مرجعا لهما ليفضل كل منهما مرجعيته على مرجعية الآخر.

القضايا الملحة الآن متعددة متنوعة، أولها تصحيح صورتنا الدينية والحضارية والثقافية لدى الآخرين ليزول حذرهم وخوفهم منا، فلا ديننا دين عسر، ولا معتقداتنا معتقدات إرهاب، وليعرفوا أننا شعب ذو ثقافة عالية متمكنة في جذور التاريخ وذات مستوى رفيع.

لقد ادعى الأوروبيون فيما قبل أن ملف الثقافة العربية قد أغلق وانتهى أمره، حينما كتب أعلام كبار في سماء الثقافة الغربية بأن ثقافتنا وفكرنا لم يعد لها وجود مشرف بعدما أصبحنا تابعين لهم في كل شيء؛ وهذا ادعاء كاذب وبهتان مبين، فما زال رغم كل شيء لثقافتنا وجود، ولفكرنا حضور، ولإبداعنا إنجازات نعمل بجد ليكون غدها أفضل من حاضرها وماضيها.

الموضوع الآن هو كيف نزج بأنفسنا في معركة الحياة الحديثة لنشارك فيها ونؤثر في تطور علومها وفكرها وقضاياها، ونتغلب على عوامل الإقصاء التي طالما كنا ضحيتها.

ما هي . مرة أخرى . ثقافة العولمة التي قلنا إنها ثقافة غالبة مسيطرة؟ لقد قالوا في هذه الثقافة الغالبة، إنها تكاد تكون لا مرجعية لها في ثقافات

وتقاليد الشعوب المندمجة فيها، إنها قطعت علاقتها بالماضي، ومن هنا كانت الدعوة عندنا للقطيعة مع الماضي باعتباره يصرفنا عن الحاضر ولا فائدة ترجى منه، غير أن الذين يقال عنهم إنهم قطعوا صلتهم بالماضي في المغرب، إن كانوا قد فعلوا ذلك حقا، لم يقطعوها نهائيا وإنما لطفوا من اللجوء إلى التراث بعدما درسوه وعرفوه حق المعرفة وتعمقوا في فهمه ونشروه فأصبح لديهم معروفا موثقا؛ فكيف نطالب نحن بذلك وأكثر من تسعين في المائة من تراثنا ما زال مهملا غير مدروس ولا معروف.

وإذا كان يقال إن المستقبل الثقافي هو للمجموعة الكبرى في أوروبا وأمريكا فإننا لسنا مستعدين للقطيعة مع تراثنا ونحن نتحفز لبناء وتجديد مستقبلنا الثقافي.

الثقافة الجديدة لا مرجعية لها في ثقافات وتقاليد الشعوب المندمجة فيها، وليس فيها امتداد للمشاعر الإيديولوجية القومية، ولا لبعد العواطف والمشاعر؛ هذه الثقافة الحديثة أسسها تواصلي تقني متشعب متمكن، يقال عنه أنه سيؤدي إلى محو الاختلافات الثقافية، ليخلق حتميا ثقافة عالمية جديدة قائمة على وسائل الاتصال، وعلى خصائص تقنية مشتركة، وقيم جديدة، وتصورات مستحدثة، تخالف ما عرفته كل الشعوب من قبل، وخصوصا في الصفات التي شكلت التراث والهويات على امتداد التاريخ واستمراره، لأنها ابنة ساعتها، لها كل يوم جديد، وكل حقبة تنكر ما وراءها، لأنها ليس فيها تراكم. فلن يعود هناك شعور بالاستمرار في تجارب الأجيال المتعاقبة لأن التغيرات والتبدلات والتطورات مستمرة في حركة حتمية لا تعرف التوقف؛ فهذه الثقافة المعولمة تغفل ما مر وتنساه ولا تؤمن ولا تعمل إلا بما سيأتي، فلا تشمل الدور الحيوي للذاكرات والتجارب التاريخية

المشتركة. هذه الثقافة خليط من الأساليب، يدعمه خطاب علمي عالمي موحد، له قيمه ومصالحه وأنظمته المساندة، وهي توفيقية لا ترتبط بزمانها، لها مزيج من المكونات المتباينة المتولدة عن أنظمة الاتصالات الحديثة، بينما أننا حينما نتحدث عن ثقافتنا نقول إن أصولها العربية الإسلامية هي القرآن الكريم والحديث الشريف، والممارسات والتجربة العربية الإسلامية خلال العصور الماضية، يضاف إليها ما أنتجناه وما نحققه في هذا العصر الحاضر على الخصوص، كما كانت الثقافة المقابلة الإغريقية اللاتينية المسيحية اليهودية المؤسسة على الفكر الإغريقي اللاتيني أولا ثم على التوراة والإنجيل، كثقافتنا المؤسسة على القرآن، وبذلك تختلف عنهما الثقافة الحديثة في كل معطياتها.

قد يقول بعض الناس: "ما لنا ولهذا؟ لماذا نتعب أنفسنا في الجري وراء هذه الثقافة المعمولة؟ نقول له إننا مرغمون على الاندماج في العصر لأن وسائل الاتصالات العصرية ليست محايدة، فهي لا تمهل ولا تهمل، بل تهاجم وتسيطر بقوتها الخارقة، فلا يكفي أن تتجاهلها لتتركك، ولذلك يجب أن ننتج المناهج التي تمكننا من المحافظة على تراثنا، ومن المحافظة على هويتنا وثقافتنا، ومن الدخول في هذه الحضارة الحديثة بكيفية فعالة مؤثرة ومشاركة شريفة.

الثقافة المستحدثة تحتاج في قراءتها وفهم رموزها إلى مسلسل تفكيكي لفهم معانيها الخفية الخاصة التي يستنبطها خطابها الواسع العميق المتجدد. وتلك هي عناصرها الجديدة التي تكتسح كل العالم، فلا يفلت منها أحد، ولا تسلم من طغيانه الثقافات الأخرى مهما كانت، لأنها طاغية تسد على الناس الآفاق، رغم أنها كما قالوا ما زالت لم تستوف شروطها،

لذلك يلزم الحذر والاستعداد للغد دفاعا عن الهوية وعن النفس وعن اللغة وعن التاريخ وعن القيم وعن الرموز الخاصة بنا، المكونة لثقافتنا، التي هي علة وجودنا.

ثقافتنا المغربية العربية الإسلامية حينما تستجيب لدعوات التغيير والتحديث تتقوى، وكذلك حينما نعمد للتخطيط العلمي بتحريك الطاقات الكامنة لدينا وتفعيل قيمنا الثقافية.

الأصول الكبرى لثقافتنا باقية مستمرة بالقرآن الكريم والحديث واللغة العربية، لأنها ثوابت لا تقبل التعويض؛ نعم قد تكون بعض التجارب التي تكونت لدينا وتكدست وتراكمت خلال التاريخ، هي بنت ظروفها، ويمكن بعد تغيير الظروف أن تكون موضوعا للتغيير، فيظهر أن من المصلحة تجاوزها وتعويضها، أما الأصول فلا تحول ولا تزول.

كيف يمكن لثقافتنا أن تكون منهجية وقوية؟ هناك شروط كبيرة لذلك؛ وفي رأينا أن في طليعتها وعلى رأسها وجود مفكرين كبار يفكرون بها ويكتبون عنها فتشيع وتتمكن وتذيع.

حينما ندرس تاريخ أوروبا، تاريخ الفرنسيين مثلا في القرن الثامن عشر، نجد أسماء الأعلام ظهرت وتدرس، لا في الأدب فقط بل في الفلسفة والتاريخ أيضا، لأنها كان لها تأثير كبير في المجتمع، كفولتير ومونتيسكيو وديودرو وآخرين، واهتدى بهديهم وائتم بأفكارهم.

قد نقول عن الفيلسوف هيجل سابق الذر الذي تحدث عن الإسلام بما لا يعجبنا ولا نوافقه عليه: " فليذهب إلى الشيطان" . ولكن علينا أن نعرف أن ما جاء على لسانه وفي كتابه ليس بالقول الذي يستهان به، فهو فكر مدمر

يسيء إلينا، ومن تم وجب الرد عليه، وعلى توينبي وغيرهما، وهم كثر لتأثيرهم على الفكر الأوروبي الذي ينصت بإمعان إلى ما يقولونه، ويردده، ويترسم خطاهم، ويؤمن بأفكارهم، ويعتبرها حقيقة لا يتسرب إليها الشك.

وفي النصف الأخير من هذا القرن ظهر في العالم العربي أعلام مفكرون وكتاب كبار من الذين يهزون المجتمع بأفكارهم ويتحدون الوضع؛ فطه حسين هز المجتمع بأفكاره خصوصا بما كتبه عن الشعر الجاهلي مما قد نكون موافقين أو غير موافقين عليه، فكان الناس معه وضده، وكانت معركة أدبية فكرية حضارية ثقافية كبيرة. وفي نفس الوقت، وحينما كانت الخلافة على وشك السقوط أو سقطت بالفعل في توركيا، كان الناس يستعدون في مصر . باعتبارها أكبر دولة إسلامية . لإعلان الخلافة بها من جديد، فقام الشيخ الأزهري علي عبد الرازق وقال: الخلافة ليس لها أصل في الإسلام، ويمكن للمسلمين أن يعيشوا بدونهان، فهاج الناس ضد شهادته وحاكموه، لأنه استفزهم لما نادى برأي لا يسير وفق ما يعتقده الجميع وما يؤمنون به من أفكار مقررة معروفة يكاد لا يناهضها أحد.

على أن لنا في المغرب اليوم أعلاما مفكرين كمحمد الجابري وعبد الله العروي ومحمد عزيز لحبابي، وأدباء كمحمد برادة وعبد الكريم غلاب، وغيرهم كثر من الذين تأخذني النخوة عندما أقرأ للمشارقة وأجدهم يذكرونهم ويستشهدون بآرائهم ويُحيلون عليها.

كما أن عندنا مجموعة من خريجي أقسام الفلسفة من الأساتذة الذين نزلوا بشؤون الفكر والثقافة والمعرفة الفلسفية من برجها العاجي وروجوها في مؤلفاتهم ليعلموها بلغة يفهمها الناس، وجعلوا لها مسارات بواسطة الكتابة

الأدبية التي يفهمها ويقرأ بها الجميع بعيدا عن النص الفلسفي المعقد الذي لا يفهمه غير الأخصائيين.

هؤلاء بزغت نجومهم في العالم العربي اليوم، ولعل فكرنا سيكون له في المرحلة المقبلة أعلام يتعدى ذكرهم النطاق العربي للخروج إلى العالم الأوسع، عالم العولمة الأرحب، حينما ستنقل مؤلفاتهم إلى لغات أخرى يقرأ بها الملايين عبر العالم.

إن لنا في جامعتنا اليوم خبرة معرفية وعلمية مهمة، وعلينا أن نتجاوزها إلى الإبداع الفني، لذلك يجب أن يسهر أساتذتنا ومفكرونا على أن يخرجوا من نطاق الخبرة والمعرفة إلى ميدان الخلق والإبداع في القصة والثقافة العامة ليقرأ لهم الناس؛ فالفلسفة مثلا كانت محصورة عند الأوروبيين في المتخصصين فيها، حتى جاء جان بول سارتر بفلسفته المعروفة بالوجودية، ونشر موضوعاتها بواسطة القصة والرواية، فأقبل عليها الناس ودرسوها وتناقشوا فيها. أما لو بقيت الوجودية على مستوى النص الفلسفي، فإنها كانت ستبقى حكرا على طائفة قليلة لا يستفيد منها العموم. ومن هنا نوقن بأنه يجب أن تنزل المعرفة الفلسفية والعلمية إلى الجميع لتكون في المتناول، وليتداولها الناس، ولتعمل عملها الفكري والثقافي في الناس وفي تغيير الذهنيات.

ونحن نواجه التحديات لتحسين صورتنا وتبرئتها من التشويه، وهي أ، نكون مع الآخرين في وئام وأن يكون بيننا وبينهم حوار السلم، أما المجابهة فلا قبل لنا بها.

لقد أصبحت لزاما علينا تحريك طاقتنا الكامنة وتفعيل قيمنا الثقافية ووضع مجتمعنا على طريق النهضة للعبور نحو المستقبل الذي نريده أفضل وأكثر إشراقا وإنتاجا وإبداعا وعطاء.

إن الزمن تتغير إيقاعاته بشدة، والشعوب تتجه فيه نحو أشكال من العلاقات لم تكن معهودة من قبل، ولا سبيل للاندماج في ذلك إلا بالحضور الفعال والانفتاح على الحياة الخلاقة، حياة التفاعل والمواكبة مع غيرنا، مع الآخر، ومع العصر للانخراط في العالم ومحاولة الحركة بفعالية، عن طريق المشاركة المبرمجة التي هي الحل الأوحد لتفادي الذوبان في غيرنا.

إن العولمة وما تثيره من تحديات قاهرة تحتم التسلح بالعلم والمعرفة والوعي والجرأة على فهمها الفهم الصحيح، وتقدير خطورة عدم التصدي لها بوضع المعايير السليمة للدخول في عالمها قصد الاستفادة منها وتلطيف الصدام بها وبنتائجها المحتومة لامتصاص المتغيرات والمتحولات، بعقل عالم متطور مؤمن بنفسه يستعمل المناهج القويمة، للحفاظ على كينونتنا في عالم لم يعد يعرف الثبات ولا يركن إلى الهدوء.

فالتعامل الواعي الفاعل مع العولمة يمكن من الحفاظ على الذات دون الغرق في المتغيرات، لبناء الثقافة العالمية المشتركة الجديدة التي لا تقبل أن نقف منها موقف القبول المطلق الجاهل باسم مسايرة العصر والدخول في منطقه وفكره.

إننا لا نقبل أيضا موقف الرفض المطلق باسم الحفاظ الجاهل الأعمى على الهوية والتحصن ضد كل وافد جدي.

إن المرور من حالة الانفعال والتأثر بهذه الثقافة الجديدة إلى حالة الفعل فيها لا يتم إلا بالقدرة على الحوار معها والانخراط فيها والتكيف مع متغيراتها، مع استمرار ثوابتها التي بفقدانها يضيع كل شيء منها.

للتغلب على عوامل الإقصاء التي نكون ضحيتها، والتهميش الذي يلحقنا، لابد أن يظهر بيننا مفكرون كبار موهوبون من ذوي الثقافات العليا القادرون على تأسيس العقل لأمتنا في المستقبل.

إنهم المبدعون الأولون الذين لا يكونون صدى لغيرهم، بل هم الذين يثمرون التفكير القوي البناء الموجه في إطار رسالتهم التي ينشئونها ويبلغونها دفاعا عن أمتهم وإعلانا لوجودها وتجلية لإبداعاتها وخواصها، في وقت يسير فيه المجتمع العالمي نحو قيم مثل وأهداف يقولون إنها ستوحد البشرية كافة، وتزيل اختلافاتها خروجا بها من المنغلق إلى المنفتح.

إن مجتمعنا يريد أن يحيا في تطور مع عصره وأن يعيش في تناسق مع مستجدات الفكر ومكتسباته ليستفيد منها ومما حققته في جميع الميادين، دون أن يفقد شخصيته ويضيع هويته ويذوب في غيره، فيبقى إلى جانب مجاهدته للدخول في المجتمع الحديث ملتصقا بثقافته، مؤمنا بقيمه الروحية الوطنية المغربية الإسلامية التي لا حياة ولا مستقبل بدونها.

المسيد الأول والثاني

- المسيد الأول
- المسيد الثاني
- المقاومة
- حي اليهود (الملاح)
- فاس القرويين

المسيد الأول والثاني

المسيد الأول

كان الميلاد في مدينة فاس بدرب بني عدس بأعلى عقبة سيدي محمد بن الفقيه، وهو الحي الذي عاش فيه الآباء والأجداد لمدة طويلة كما تثبته بعض الوثائق الخاصة بالأسرة.

وبعد سنتين أو ثلاث، كان الالتحاق بالمسيد القرآني الذي كان من سبقني إليه يدفعون بابنائهم إليه لحفظ القرآن كلاّ أو أجزاء، وكان القائمون بهذه المهمة كلهم من قبائل جبالة، فكان الفقهاء الجبليون هم المكلفين بتحفيظ الصغار القرآن، إذ كانت هذه المهمة مقصورة عليهم في المدينة القديمة، بينما كان فقهاء فاس الجديد من ناحية جبالة. ولذلك قيل إنه ليس هناك فاسي نجا في صغره من "فلقة" فقيه جبلي. وفكان الفقهاء يقومون بعدة مهام دينية في المجتمع القديم، فإلى جانب تحفيظ الصغار القرآن كانت لهم إمامة المساجد وقراءة وترتيل حزبين من القرآن يوميا، مرة أولى بعد صلاة الصبح ومرة ثانية بعد صلاة المغرب، إلى جانب مهام أخرى متنوعة، ولكنها تبتعد عن هذا النطاق. والصغار يتعلمون أولا ارتياد المسيد واعتياد اللجوء إليه ثم يعطون لوحات من العود تكتب لهم فيها الآيات القرآنية الأولى ويتدرجون بعد ذلك، إلى أن تصبح لديهم ألواح عريضة تضم أجزاء لا بأس بها، تزيد وتتسع بحسب السن. يحضر التلاميذ في الصباح الباكر، وبعد مراجعة ما كتبوه أمس، يمرون واحدا يلي الآخر أمام فقيه يستظهرون عليه الآيات المكتوبة على ألواحهم؛ فإذا كانوا قد حفظوها حفظا جيدا فان الفقيه يأذن لهم بغسل ألواحهم بالماء والصلصال. وبعد انتهاء

عملية المحو هذه يتم تيبيس الألواح. وفي فصل الشتاء يسمح لهم بالخروج للذهاب إلى الفران لتسريع عملية التيبيس. وإذا ما رجعوا تحلقوا حوله وأخذوا يتلقون من عنده كلمة كلمة مما سيتكلفون بحفظه من جديد وهم يكتبون على ألواحهم بأقلام القصب والصمغ الأسود، وتمر الأيام والسنوات متشابهة رتيبة إلى أن يكبر التلاميذ، وهم قد حفظوا النص القرآني، وربما تكون معه أجزاء مهمة من منظومات خاصة، كمنظومة ابن عاشر فى مبادئ التجويد والفقه، وألفية ابن مالك في النحو وغيرهما، وكانت العادة أيضا أن يتلقى الفقيه أسبوعيا قليلا من النقود تسمى حق الأربعاء؛ كما كانت تعطى للفقيه في مناسبات عدة مقادير من المال بمناسبة حفظ التلميذ لأجزاء معروفة من القرآن.

وهناك منظر كان المار بأزقة المدينة لا يعدم أن يراه في آخر النهار أحيانا وهو جماعة من الصغار يلعبون الكرة، وتحت جلاليبهم الصغيرة ألواح تضايقهم في حركاتهم، وقد سمح لهم الفقيه بأخذها إلى منازلهم ليتموا حفظها أثناء الليل، ولذلك يسترونها تحت جلاليبهم الصغيرة لئلا يراها الحمار في الشارع، فإذا حدث ورآها فإنهم يستحيل عليهم حفظها بعد ذلك، خصوصا وأن الأزقة ضيقة يكثر مرور الحمير بها، وهي محملة بأنواع شتى من الحمولات التي لا يستطيعون وحدهم إيصالها إلى محلات مختلفة عبر دروب المدينة، التي لا تمر فيها السيارة وكل أنواع المجرورات، لضيقها وصعوبة التحرك فيها.

المسيد الثاني

ثم كان الانتقال إلى المسيد الثاني بضريح سيدي بورمضان، بحي المونية بقنطرة بوروس وكان على المثال الأول للمسيد السابق في أول الأمر،

لكن تغييرا كبيرا حدث بعد عدة أشهر، فقد جاءنا أستاذ جديد كنا نسميه بالمدير، و صار يعطينا دروسا لم نألفها من قبل، فقد علق سبورة سوداء على الجدار، وبينما كنا نجلس على الحصير، اتخذ هو كرسيا خشبيا، على غير عادة الفقيه الذي كان يجلس معنا على الأرض، ولم تبق الكتابة على ألواح العود فقد اشترينا دفاتر، وزجاجة مملوءة من مداد، وأقلاما معدنية نكتب بها على الورق. وكان ذلك يعجبنا كثيرا كدروس المدير التي كان يعلمنا فيها الفقه والنحو وغير ذلك. وقد أخذ المسيد يتسع مع مرور الزمان، وكثر تلاميذه، والتحقت به تلميذات صغيرات وأساتذة آخرون. وكان هذا هو النموذج الوسط بين المسيد القديم والمدرسة الجديدة التي جاء بها الاستعمار.

وقد بقي الأمر كذلك، حتى طلب منا نحن تلامذة القسم الأول أن نذهب إلى القرويين ذات يوم. وبعدما اجتزنا امتحان الانخراط فيها شفويا، عينت لنا الأقسام والسنوات التي يجب أن نلتحق بها. وكنا جماعات آتية من مختلفة المدارس العربية التي كانت موجودة بمدينة فاس آنذاك. وكانت القطيعة الكبرى بين ما نشأت عليه وبين دراسة جديدة في القرويين، بالكتب الصفراء، والعلماء الذين كانوا يتعاقبون على تعليمنا كل يوم طيلة أيام الأسبوع إلا يوم الخميس والجمعة. وكنا في بادئ الأمر لا نفهم عنهم شيئا، لكن أخذنا نتابع ما يقولون باهتمام بعد مرور الأيام اندمجنا فيما معد مع الطلبة الآفاقيين الذين كانوا يأتون لفاس وهم أكبر منا سنا. وفي تلك الأثناء صرنا نشعر ببعض الحرية، إذ لم تبق حياتنا محصورة بين المدرسة والمنزل عبر الشوارع الضيقة، بل صرنا نتعدى أبواب المدينة لنجول في متسعات أبواب الفتوح والكيسة وبوجلود التي كنا نقصد للتفسح.

المقاومة

بقيت المقاومة مستمرة لزمن طويل عبر أنحاء المغرب، وكان أكثرها وأشدها في منطقة الريف على يد الزعيم الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي التي أتعبت الدولتين المستعمرتين فرنسا وإسبانيا. ولم تنته إلا بعد سنوات من الكفاح حققت فيها انتصارات ما زال يؤرخ لها حتى الآن لما نالته من إعجاب واعتراف. وما انتهت حتى برزت المقاومة المدنية على يد الشباب الوطني، وبقيت مستمرة لتوعية الناس بوطنهم وماضيهم وحاضرهم. وقد شاركت في ذلك العمل في المدارس الحرة التي أنشؤوها عبر أنحاء البلاد، والتي كان المستعمر لا يحبها ولا يعينها. وقد توجت هذه الحركة بمطالب قدمومها للحكومة باسم المطالب المستعجلة، وعلى رأسها الاحتفال بعيد العرش الذي قاومه ورفضه المستعمر في البداية، لكنه اضطر إلى الاعتراف به بعدما أصبح مطلبا شعبيا؛ ومن ثم صار الاحتفال بعيد العرش مظهرا كبيرا ذا أثر عظيم في نفوس الناس. وفي فاس كما في غيرها من المدن والجهات كان يوم عيد العرش عطلة تعطل فيه الإدارات والمؤسسات والمدارس عن العمل الذي يتوقف كليا، وكان التجار في الأسواق يقدمون في المشاركة ما يلزم لتلك الاحتفالات من طعام وشراب، ويفرشون الأسواق المزينة بالرايات وشتى أنواع الزينة. أما جمعيات الشباب فكانت تقيم حفلات وطنية تقام فيها الخطب والأشعار، وتحضرها جموع غفيرة تسمع فيها ما يؤكد وجود الدولة الوطنية المغربية المستمر، كما ينصتون إلى خطاب العرش الذي يلقيه الملك في ذلك اليوم، ويعلن فيه ما تحقق إنجازه خلال السنة. وقد بقيت هذه الحالة مطردة طول أيام الحماية.

حي اليهود (الملاح)

وكان حي اليهود في الملاح هو المتنفس الوحيد للشباب بفاس العصري، الذي كان يزوره ليجد فيه ما لذ وطاب من المأكولات والمشروبات في كل الأوقات، إلى أن انفتح لهم الحي الأوربي بمقاهيه العصرية والسينمائية الواسعة التي تعرض الأفلام الأوروبية والأمريكية، قبل أن تفتح سينما بوجلود التي تخصصت في عرض الأفلام المصرية التي يفهمها الناس ويفضلونها، لأنهم يفهمون لغتها وأغانيها المحببة إلى قلوبهم.

بعدما كان عامة الناس لا ينصتون إلى موسيقى الآلة التي صارت أخيرا تدعى الموسيقى الأندلسية، ولفن الملحون الذي كانت له شعبية بالغة، أصبحوا يقلدون الأغاني المصرية الواردة مع الأفلام، فيتغنون بأغاني عبد الوهاب وأم كلثوم وفريد الأطرش. ومع الاستقلال ظهر فن غنائي مغربي جديد كان له فنانوه الذين عرفوا هم أيضا بشعبية بالغة بقيت تزداد وتتكاثر إلى نهاية القرن الماضي، حيث لم يجدوا التشجيعات والحماس الذي عرفوه من قبل.

فاس القرويين

ساهمت جامعة القرويين منذ إنشائها في الإشعاع الديني والمعرفي والوطني، بما أنجبته وكونته من رجالات العلم والمعرفة عبر العصور.

مرت فترات طويلة بقيت تدور خلالها في حلقات مفرغة من التكرار واستنساخ الفكر الذي لم يعد يتجدد، بل يعيش في شروط بعيدة عن النهوض والتطور. وعند نهاية الثلث الأول من القرن الماضي عرفت جامعة القرويين نقلة نوعية كبيرة، كان يهدف من ورائها إلى إحيائها واقامة وصرحها

ليتقوى في وجه المستعمر الذي عرف أهميتها فبالغ في إضعافها وإخفات صوتها وتشويه صورتها.

وقد عرفت الجامعة بهذه التنظيمات ازدهارا عظيما، بالنسبة لحالة التدهور التي كانت تعيش عليها من قبل، وهو ما جعل منها معقلا للدراسات الوطنية وللفكر الإسلامي خلال فترة الاستعمار المتبقية. وما إن شرع أهل الاستقلال في تنظيم التعليم بكل مراحله، ليتلاءم مع مسيرة البلاد الجديدة، حتى أعيد النظر في برامجها ومقرراتها بطلب ملح من شيوخها وطلبتها، وذلك لإحلالها المكانة اللائقة بها في مغرب المستقبل، بين الجامعات الحديثة التي شرع في إنشائها آنذاك، وبتنظيمها نظاما عصريا كاملا، قصد تطوير برامجها ومقرراتها وتقوية تأطيرها، وتشجيع البحث العلمي بها، ليعود لها بريقها العلمي وإشعاعها الروحي، ولتنهض عن جدارة بالدور المنوط بها في المجتمع المغربي الحديث.

وفي سنة 1975 أصبحت جامعة القرويين تخضع في تسييرها التربوي والإداري لظهير (25/2/1975) المتعلق بتنظيم الجامعات المغربية. وذلك لتبقى جامعة دينية تعليمية تسير وفق روح العصر وتطوره. وبذلك أصبحت تشتمل على أربع كليات تابعة لرئاستها بفاس:

- كلية الشريعة بفاس.
- كلية اللغة العربية بمراكش.
- كلية أصول الدين بتطوان.
- كلية الشريعة بأكادير.

ونظرا للرسالة الفكرية التي تتحملها جامعة القرويين اعتبرت من المقومات الرئيسية لهوية الدولة المغربية، بمساهمتها الفعالة في النقلة النوعية من مرحلة التخلف إلى مرحلة متقدمة من النمو والتطور، بمساهمة أطرها المكونة تكوينا علميا رصينا أصيلا.

وهي تتطلع إلى مزيد من الفعالية لتحقيق رسالتها ودورها الفكري والتثقيفي العام، والعمل الفعال في مجال التطور الاجتماعي والحضاري التي تعرفه البلاد، والحفاظ على التراث الثقافي وحفظه من التلاشي والضياع.

كما تسعى إلى إنتاج المعرفة وتطويرها، وتلقين العلوم الشرعية واللغوية والقانونية والأدبية والإنسانية على أسس عصرية، لمساعدة الطلبة على الأخذ بناصية العلم، وخلق روح الابتكار فيهم، مع الاهتمام بمشكلات العصر، ومعرفة قضاياه الكبرى استعدادا لمواجهة تحديت المستقل ومتطلباته العلمية. ولا يتم ذلك إلا بالشروط التالية:

. توسيع الأفق المعرفي العلمي بها،

. تأصيل القيم الإسلامية، مع امتلاك قيم الحداثة والتطور، مع الانفتاح على الإبداع العلمي والفكري الذي يشعر به الأساتذة حاليا.

- السعي إلى بلورة ثقافية حوارية تواصلية عصرية تربطها بقافلة الاجتهاد والإبداع.

. السهر على تحصين الطلبة وإشباعهم بالقيم الوطنية والإسلامية والقيم الإيجابية للحداثة.

فثقافة الحوار هي السبيل الأوحد والأرجح لتربية الأجيال على الانفتاح، وتمكينهم من التواصل مع المحيطين الخاص والعام، لفهم التطورات

العالمية، والتأثير والمشاركة فيها بمعرفة النظام الذي يحكمها ويسيطر عليها في الأعماق.

إن مغرب اليوم والغد في أشد الحاجة إلى جامعة وطنية قوية لإنتاج علماء ومفكرين، يعرفون الإسلام معرفة صحيحة متينة، ويعرفون العالم والتقلبات الحضارية والثقافية والعلمية، ويستطيعون تجاوز المظاهر إلى حقائق القضايا وأسرارها، ليقوموا بدورهم الهائل الصعب الدقيق، المتمثل في الحفاظ على الإسلام الصحيح، والقدرة على الحوار لتحسين صورته التي شوهتها الدعاية الغريبة، وقدمتها قي صورة لا تمت إلى الحقيقة في شيء.

لقد كان المغربي خلال النصف الأخير في القرن الماضي يحتاج إلى علماء من مختلفة التخصصات، فعمل على تكوينهم وإنتاجهم، مستغنيا بخدماتهم عن الأطر الأجنبية التي كانت تحتل كل المناصب، وتقوم بكل المهام الصغيرة منها والعليا في غياب التأطير الوطني. وها هو اليوم تجدد بجامعة علماء الروحيات في عالم متطور متقلب، لم يعد الإنسان فيه يكتفي بالرخاء المادي والاقتصادي، بل صار يحن إلى التكوين الديني القويم، ليطمئن قلبه بالإيمان بعدما روعته الحروب وكل أنواع المكر والخداع و الدمار. والإسلام هو وحده الكفيل بالقيام بهذا الدور الخطير.

في بلدنا إذا ما فهم الإسلام حق الفهم،ونفذ دارسوه إلى أسراره، وعرفوا مقاصده ومراميه، بعيدا عن كل ديماغوجية وجمود فكري، وتراجع عن صور من الفهم والتدريس لم يعد لها مبرر، لأنها أصبحت خارج التاريخ والزمن الذي يسير نحو مستقبل أكثر إشراقا لينفتح على فضاءات علمية وثقافية واسعة، ويزيل عن نفسه غشاوة النظرة الأحادية للأشياء والعالم. فمن واجب العلماء الأول العمل على تصحيح وتحسين صورة الإسلام والمسلمين في كل

المجالات، وإتقان اللغات الأجنبية ليعملوا بها، وليتصلوا مباشرة بالناطقين بها دونما حاجة إلى الترجمة التي يضيع أثناءها جزء مهم من رسالتهم.

يجب أن تصبح جامعة القرويين فضاء للتكوين الإسلامي الصحيح، والحوار والتسامح، بعيدا عن الفكر الأحادي الضيق والآفاق المحصورة، والتقليد الأعمى.

لقد آن الأوان إذن للقيام بإصلاح جذري فى الجامعة على كل المستويات، بعد أن أصبح الإسلام محورا من أهم المحاور الدينية والسياسية والفكرية في عالم اليوم، ولذلك فنحن في حاجة إلى تكوين علماء متيني الثقافة، في مستوى المهمة الخطيرة المنوطة بهم في الداخل والخارج، وطنيا وعالميا.

لقد بقيت الدراسات الإسلامية محصورة بين جماعة المستقبل تحصر النظر في التطور التكنولوجي غافلة عن دور الإسلام الكبير في السياسة والثقافة والحضارة والتقدم الاجتماعي، وتكوين الإنسان المفكر المطمئن القلب، الذي يعرف كيف يواجه التحديات ويتعامل معها بعلم ورفق وأناة وعقل مفكر متثبت متمكن. وجماعة أخرى ضيقت أفق الدراسات الإسلامية بدعوى الانتماء والإخلاص والدفاع عنها، وحصروا دراستها فى المكان والزمان، ومنعوا التجديد في مناهج دراستها، بدعوى خصوصية زاعمة أنها لا تقبل التطور والتجديد والتغيير، بينما الضيق في صدروهم، والحصر في أفئدتهم وعقولهم ومعرفتهم.

يريدون منع الإسلام من أن يكون فكرا واسعا، وثقافة رائجة في متناول الجميع، لتأتيت حياة كل المواطنين بدون استثناء، والمشاركة في بناء

المستقبل المرجو. لهذا فنحن في حاجة إلى مثقفين في مختلف التخصصات، يكون الإسلام الصحيح عنصرا قويا من عناصر تكوينهم وتفكيرهم، فيتساكن ويتعايش ويتحاور مع تخصصاتهم المتعددة، في تفاعل إبداعي خلاق. وهو ما يجب أن تسعى إليه جامعة القرويين بصفة خاصة في حلتها الجديدة.

والعمل الملح الآن يجب أن يتناول:

. تحديد رسالة الجامعة ووظيفتها ومهمتها في مغرب حالي واستنادا إلى تكوين علماء لكل المهمات المنوطة بها على جميع المستويات، للممارسة التعبدية، ولإرشاد الناس ووعظهم في الحياة اليومية، وتكوين أطر عليا للنظر في المهمات الفكرية والاجتماعية والسياسية والعلمية والاعتقادية، على مستوى العيش في نطاق العولمة، التي أصبحنا نعيشها، وعملا بالتفتح على الثقافات العالمية ومحاورتها، لتصحيح النظرة إلى الإسلام والمسلمين في عالم اليوم.

وكل تعليم إسلامي يتمسك بالنصوص والقوى العتيقة، ويبقى منقطعا عن الاشتغالات الحقيقية للمجتمع، يكون مآله الفشل، لأنه لا يشارك في التنمية، وفي وقت ينخرط فيه المغرب في مسيرة مستقبلية في كل المجالات، مع قوم يكتفون بالدراسات الإسلامية في شكلها العتيق، ويريدون أن يهيئوا المستقبل بالرجوع إلى الوراء، وكأن الإسلام لا يقبل التجديد فيها بنفض الغبار عنها. وإنني لأستغرب من أمرهم هذا كما استغرب منه قاضي الجماعة بفاس محمد المقري التلمساني (سنة759هـ)، متحدثا عن هذا الصنف من الدارسين الذين اقتصروا على حفظ ما قل لفظه ثم افنوا أعمارهم في حل لغزه وفهم رموزه ... أي أنهم يتركون جوهر العلم ولبه،

ويشتغلون بالحفظ والتلقين والاختزال والاختصار والاستظهار، وهم يوهمون أنفسهم أنهم يدرسون الشريعة، وهم عنها وعن حقيقتها وعن فكرها ابعد ما يكونون.

. تغيير نظام الدراسة بتوسيع شبكة التخصصات وإيجاد نظام الإجازات المزدوجة اللغة يدرس فيها الطالب:

. تطوير مناهجها الدراسية ومقرراتها لتتمكن من أداء رسالتها على الوجه المطلوب.

. تقوية إمكاناتها البشرية والمادية والتقنية.

ولا نرى فائدة في توسيع الجامعة وجعلها جامعة عامة، لأن ذلك يصرفها عن مهمتها الأولى، وهي خدمة الفكر الإسلامي.

. إنشاء معاهد عليا متخصصة في البحث العلمي في الشؤون الدينية والفكرية، والنظر في المشاكل والتحديات الناتجة عن تطورات العصر، والاتصال المباشر بالحضارات والثقافات الأجنبية،متخصصة كذلك في دراسة اللغات الأجنبية الحية والتعمق فيها إلى جانب اللغة العربية. متخصصة في تعليم الأجانب من غير المسلمين الإسلام واللغة العربية، قصد تصحيح صورته وإزالة ما علق بها من الشوائب.

فـــاس

ـــ الميلاد ـــ الأندلس ـــ التعبير والإبداع ـــ الفضاء المغربي ـــ المنبوذون ـــ المعلمة ـــ المهاجرون ـــ طريق الانعتاق ـــ التعليم ـــ المدرسة الحديثة ـــ تعليم الفتيات ـــ قدماء التلاميذ ـــ أكاديمية العلوم ـــ الأكاديميات ـــ الترجمة في الجامعة ـــ التقييم العلمي ـــ الجامعة المغربية ـــ الجامعة ـــ الطلبة ـــ جامعة القرويين ماضيا ومستقبلا ـــ شعبة الفلسفة

فـاس

عرفت مدينة فاس خلال تاريخها الطويل بكونها مدينة لها وجود، حياة خاصة مليئة بالحركة والتطور؛ فقد كانت أزقتها ضيقة تؤوي بيوتها وقصورها المتعددة ذات الطوابق التي تفوق الاثنين، وتنتهي بسطوحها الواسعة التى تمكن أصحابها من أن يعيشوا حياتهم الخاصة فى سعة، بعيدا عن أعين الناس؛ كما كانت في أغلب الأحيان مفروشة بالرخام والزليج الذي يقوي جدارها العالية والخشب المنقوش الذي يكسو سقوفها، وكانت مياه نهر فاس تتوزع على جميع دور المدينة منذ أكثر من عشرة قرون ثم تخرج منها وتتجمع لتصب في نهر سبو وقد حملت معها نفايات فاس التي تحملها إلى البحر، كما أن المدينة كانت لها حمامات عمومية في كل أحيائها وأفران لطبخ الخبز وتسخين مياه الحمامات التي يقصدها كل سكان المدينة رجالا ونساء في كل فصول السنة. وعرفت المدينة كذلك بكثرة مساجدها الكبيرة والصغيرة والمتوسطة التي هي دور للعبادة وللعلم فقط. وكان مسجد القرويين المسجد الجامع الأول الذي تعقد فيه حلقات التدريس من صلاة الصبح إلى العشاء، وكذلك كان الأمر خلال عدة قرون بمسجد الأندلس. أما باقي مساجد المدينة فكان سكان المدينة يقصدونها للاتصال بالعلماء، وكذلك قصد الثقافة ومحو الأمية وهو ما كان يبعدهم عن الجهل التام الذي عرفه وعاش فيه غيرهم. وعرفت مدينة فاس كذلك بدورها التجارية الكبرى التي كانت لها علاقة بمختلف البلاد الشرقية والأوروبية، فكان كبار التجار يستوردون السلع ويصدرون ما تنتجه الصناعة التقليدية وما أكثرها إلى البلاد الإفريقية والشرقية. أضف إلى هذا العلاقات الفلاحية التي كانت تربط بين السكان ممن يملكون أراضي فلاحية خارج المدينة ويتصلون

باستمرار بالفلاحين ليشتروا منهم المنتوجات خلال السنة كلها؛ ولذلك كانت لسكان فاس حركة تجارية و فلاحية مستمرة عبر كل فصول السنة، وكان سكانها يردنونها من كل أنحاء المغرب، إما للتلقي وإما للاشتغال في صناعاتها وفي مدارسها العديدة التي امتازت بها واشتهرت إلى درجة بالغة وما زالت قائمة إلى الآن تمثل جواهر معمارية تضاهي جمال القصور واتساعها في بعض الأحيان. وكانت تشتمل على رياضات مغروسة بأنواع الشجر والنبات وتهيئ حياة منزلية رفيعة لنقاء هوائها وطهارته. وتشتمل مدينة فاس أيضا على أضرحة، خاصة تبنى حول قبور شيوخ ورجال امتازوا في تاريخها، وعرفوا بتعبدهم وتدينهم الكبير، والمحبة والإخلاص المتبادل بينهم وبين الناس الذين لا ينسونهم بعد وفاتهم، ويخلدون ذكراهم ببناء أضرحة لهم يعبد فيها الله طول الوقت، ويتلى فيها القرآن والدعوات بدون انقطاع. كما تقام لهم مواسم سنوية تكون فرصة للاحتفال بهم وتخليد ذكراهم. وضريح إدريس الأول مؤسس المدينة خير مثال على ذلك بنى له السلطان المولى إسماعيل أكبر قبة بالمدينة ويفد عليه الناس من كل حدب وصوب، ويقدمون العطايا والهدايا للأحفاد الشرفاء الأدارسة، الذين لهم حضور مستمر بالمدينة، يحترمهم الناس، ويخلدون ذكرى جدهم إدريس الأول مؤسس المدينة التي نجد بها أيضا ضريح الشيخ التيجاني الذي له أتباع في كل أنحاء المغرب وبكل البلاد الأفريقية. وهناك شرفاء آخرون لهم أضرحتهم التي يتجمع فيها محبوهم بدون انقطاع، وعلى رأس هؤلاء نجد الشرفاء الوزانيين الذين يجلهم الناس ولهم أضرحة عديدة بفاس وبغيرها من مدن المغرب والجزائر وتونس. وبذلك عرفت فاس استقرارا في هذا المجال خلال القرن العشرين رغم أن التجارة الكبرى انتقلت منها إلى الدار البيضاء التي

صارت عاصمة المغرب الاقتصادية؛ كما انتقلت نخبة من المثقفين إلى الرباط التي صارت العاصمة الإدارية للدولة، سكنها السلطان وحاشيته بعد عقد الحماية بقليل؛ لكن كل ذلك لم يمنع فاس من أن تبقى مستقرا لكثرة من رجال الفكر بحيث رأت النواة الوطنية الأولى النور بها على يد جماعة من طلبة القرويين وقدماء المدرسة الإدريسية، الذين وعوا أهداف الاستعمار منذ وقت باكر، وعملوا بوسائلهم الضعيفة على فضحها ومواجهته ومقاومته، وكما غادرت إدارة الحماية مدينة فاس إلى الرباط لتجعل منها عاصمة آمنة، غادر السكان الفرنسيون المدينة الأهلية وأنشأوا لأنفسهم مدينة جديدة خارج الأسوار، وخططوها كمدينة أوروبية واسعة الشوارع، على عكس مدينة فاس القديمة عالية البنيان ليس لها جدران تحميها، وزودها بكل المرافق.

كما عرفت فاس بأسواقها المتشابكة التي يضل فيها من لا يعرفها وأزقتها الضيقة الصاعدة النازلة، وعرفت كذلك بدورها الواسعة، وسقوفها المزينة بخشبها ذي الألوان الساحرة، وجبسها المنقوش، وجدرانها المكسوة بالرخام، ومياهها الجارية طول الوقت.

فوادي فاس وادي الجواهر يدخل كل دورها بدون استثناء، ثم يخرج منها من جديد متجها نحو نهر سبو حاملا للأوساخ وكل المضافات.

كذلك مدينة فاس، بمدارسها التي كلها قطع فنية ومعمارية خالدة، سكنها الطلاب مجانا لمدة قرون. كما عرفت هذه المدينة بأضرحتها التي يدفن فيها عادة الصلحاء من أهل الصوفية والطرقية وعلى رأسها ضريح مؤسس المدينة المولى ادريس الذي تظهر قبته الإسماعيلية الخضراء ومنارته الجميلة بجانبها.

ومن هذه الأضرحة أيضا ضريح الشيخ أحمد التيجاني الذي تزوره طول السنة وفود افريقية عديدة ولا تنقطع فيه تلاوة أذكاره نهارا وليلا؛ يضاف إلى هذه الأضرحة مجموع ما يسمى الزوايا وهي مساجد صغيرة منبثة قي الأحياء يقصدها العديد من أصحاب الطرق المختلفة وتقام فيها كل يوم جمعة حفلات اجتماعية للعبادة والذكر.

وبذلك تعج أسواق المدينة دائما بالحياة التي لا تنقطع، وبأهلها والوافدين عليها من كل الجهات، وخصوصا من محيط فاس القريب، الذي كانت تجمع بين قبائله التي تسكنه وبين أهل فاس روابط جمة وعلاقات حميمية طول السنة، خصوصا في فصل الصيف، حينما يحمل هؤلاء ما حصدوا من حبوب للبيع في فاس وهو ما يروج الحركة التجارية، لأنهم يشترون ضروريات الحياة من الأسواق، فيستفيد الجميع من هذه الحركة التجارية فى البيع والشراء.

وكان للتجارة شأن كبير في فاس، قبل أن تهملها سلطات الحماية وتنتقل إلى الرباط عقاب لها على ما كان فيها من ثوارت ضد المستعمر، وخصوصا في الأيام الدامية التي كانت أول ثورة ذهبت بحياة بعض المستعمرين، وصلت فيها الدماء في كل الأنحاء، ولم يحترم فيها أحد، وكان التجار الكبار معروفين في فاس نفسها، كما كانت لهم أسواق تجارية في أكبر المدن المغربية، كمكناس ومراكش، وخارج المغرب كما في الجزائر ومصر وليبيا وبعض البلاد العربية الأخرى، وفي بلاد إفريقية متعددة، وفي فرنسا وأنجلترا وغيرها من البلاد الأوروبية. وقد اضطروا في الأخير إلى هجرة فاس للذهاب إلى الدار البيضاء التي جعل منها المستعمر عاصمة المغرب الاقتصادية والمالية الكبرى ومازالت كذلك حتى الآن. أما في ميدان

الصناعة فإن صناعة فاس التقليدية ذات الدقة والإتقان معروفة لدى الجميع، ولا يحتاج إلى ذكرها . وقد عرفت فاس رغم كل شيء مزدهرة بتجارتها الصغيرة وصناعتها التقليدية وكذلك بحياتها الاقتصادية والمالية المرتبطة بمحيطها الذي لا يستغني عنها.

ويحكى في هذا الموضوع أيضاً أن أحد علماء فاس وهو الشيخ أبو شعيب الدكالي حج عند مطلع القرن العشرين، وعند رجوعه زار القاهرة التي كانت تعج بأفكار جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده والشيخ رشيد رضى التجديدية التي لم يكن لها صدى في المغرب، فراح يحدث الناس بها. فبلغ الأمر السلطان مولاي عبد الحفيظ، فأرسل من ينزل إلى القرويين ليحدث الناس بها، وأمر قاضي فاس أن يدعو العلماء ووجوه المدينة لحضور تلك الدروس. وفعلا أخذوا يحضرونها باستمرار لكنهم آخذوا ينتقدونها لأنهم لم يسمعوا فيها ولا نحوا ولا أصولا ولا غير ذلك من العلوم الإسلامية، لكنهم لما كانوا مارين به لم يستطيعوا التغيب عنها. وذات مرة حضر الشيخ الدكالي لإلقاء درسه، فوجدهم قد كتبوا له على الصفحة آية الكرسي "يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإن لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز" صدق الله العظيم (سورة هود الآية 19). وهذا يدل على انغلاق وانكماش فكري كان يعيش فيه الناس عامة، وعلى عدم قابليتهم لكل جديد مهما كان مصدره.

الـميلاد

كان الميلاد في مدينة فاس، أيام الأزمة الاقتصادية في أواخر أواخر القرن الماضي، وكانت فاس حينذاك تعج بشبابها الحي الناهض المجدد الذي استيقظ من غفلة القرون الماضية، وتنبه إلى التغيرات الحاصلة في العالم أجمع، فقرر أن يعمل جاهدا للالتحاق بها وللاندماج في مصيرها.

وقد عرفت المدينة حينذاك بعض الاعتناء من حكومة الحماية الفرنسية، فرصفت شوارعها، وأزيلت أزبالها، ورممت بعض مآثرها، ودخلت الكهرباء كل شوارعها، وإن كانت حركتها التجارية قد هدأت وتراجعت كثيرا، بعدما غادرها كبار تجارها الذين عرفوا بدورهم التجاري الكبير، وذلك بعدما كان لهم في كل مدينة بالمغرب سوق أو أسواق خاصة بهم، وكذلك خارج المغرب (بفرنسا وانجلترا والجزائر وليبيا ومصر والمملكة العربية السعودية وغيرها، هؤلاء التجار رحلوا إلى الدار البيضاء، بعدما صارت هذه المدينة عاصمة المغرب التجارية تجذب إليها ببريقها كل ما له اتصال بالاقتصاد والصناعة؛ أما فاس فبقيت مدينة صغار التجار ومعلمي الصناعة التقليدية والفلاحين المرتبطين بالأراضي المحيطة بها.

وما إن أهل العقد الرابع حتى انتفضت الحركة الوطنية في محيط الشباب، سواء منه من كان يدرس بجامع القرويين أو بالمدرسة الثانوية الإدريسية التي كان قدماء تلامذتها يقومون بحركة ثقافية عامة لم تألفها المدينة من قبل.

فقد كانوا يهيئون محاضرات ولقاءات على نمط جديد في شتى الموضوعات، ويدعون لها كبار العلماء من الداخل والخارج. وقد أريد لهذه

المؤسسة أن تقوم بهذا الدور العلمي والثقافي بعدما أسست فيها مكتبة جامعة، وقاعة خاصة بالمحاضرات وهو ما لم يكن في ثانوية أخرى.

وقد توجت هذه المرحلة بظهور الزعيمين الكبيرين محمد علال الفاسي ومحمد حسن الوزاني وغيرهما ممن قاموا بدور طلائعي في هذا الميدان.

ففي الوقت الذي كان فيه علال الفاسي يلقي المحاضرات في السيرة النبوية، لتوعية الناس بالمثل النبوي الأعلى، وحبه للعدل وكرهه للظلم، ومناداته بالخير والإحسان، والتآخي والتساوي بين بني البشر. كانت صحف محمد حسن الوزاني تقوم بنفس الدور على المستوى الوطني، وتنادي بنفس الشعارات والأفكار. ونشير هنا بهذه المناسبة إلى ما كانوا يسمونه بالعالمين، وهم جماعة من الشيوخ كانوا يجتمعون ببعض المساجد، ويدعون أنهم رأوا في المنام النبي عليه السلام وهو غاضب عن الحالة التي صار عليها المغرب، ويقول: سيرسل الله جنودا مجندة لمحاربة الفرنسين، فعلى الناس أن يهدأوا وأن يتركوا الأمور تسيركما هي، لأن الله تعالى سيرسل من سيحارب الظالمين ويطردهم من البلاد.

وما هذا إلا لصرف الناس عن الأفكار الجديدة المناهضة للاستعمار والداعية إلى المقاومة والكفاح الوطني. وهكذا تستمر مدينة فاس في دورها الحضاري والثقافي والوطني الذي عرفت به دائما. ونحن نعرف أنه لم يكد يمر نصف قرن على إنشائها حتى أنشئ جامع القرويين الذي قدر له أن يكون منذ تأسيسه دار علم وملجأ للعلماء والطلبة بدون انقطاع إلى يومنا هذا، مما جعل من عاصمة الأدارسة مركزا للإشعاع يحج إليه الناس من مشارق الأرض ومغاربها لأخذ العلم عن العلماء، والنهل من حياض المعرفة والثقافة التي لم تكسد لها بمدينة إدريس سوق قط، حتى قيل "لو لم يكن بفاس جامع

القرويين للدراسة والبحث والتحصيل لما تقوى شأنهم وزادت حظوتهم في المجتمع الذي قصدهم، وتحلق حولهم واعترف لهم بمركز الصدارة في المدينة، ولم يعد جامع القرويين مسجدا للصلاة فقط وإنما صار أيضا مركزا للتربية والتعليم، يشتغل فيه طائفة من جلة العلماء تقبل عليهم الطلبة من الشرق والأندلس والبلاد الإفريقية جنوب الصحراء، حتى أصبح مركز إشعاع تدرس فيه العلوم الإسلامية، واللغة العربية، والطب والصيدلة والكيمياء والحساب والموسيقى.

وقد نال العلماء بذلك حظوة عظمى لدى سكان المدينة لأنهم كانوا يفتون الناس في شؤون دينهم ودنياهم، ويتخرج على يدهم وحدهم العلماء والقضاة والأئمة والخطباء والوزراء والكتاب وكبار الموظفين، فلم يكن يتولى الوظائف في الغالب الأعم من لم يقصدهم ويصاحبهم ويعايشهم السنين الطويلة.

ولم ينقطع الملوك وأصحاب الثروات وعامة الناس هذا الزمن الطويل عن تقديم هدايا لهم، توقف على دراسة العلم والإنفاق على الطلبة الذين يعيشون من ريعها، كما تؤدى منها الخدمات اللازمة لترميم المساجد والمدارس وإصلاحها، وذلك حبا في العلم وتقديرا لأهله والمنقطعين له، مما جعل حركة الدراسة لا تتوقف على مر العصور رغم أحداث التاريخ والتغيرات التي وقعت.

وقد عرفت مدينة فاس أوج حضارتها وتطورها كعاصمة سياسية وثقافية وعلمية وفنية للغرب الإسلامي، فقد كانت دائما مزهوة بمساجدها التي تعد بالمئات، وعلى رأسها مساجد القرويين والأندلس، كما كانت دائما مزهوة بمدارسها العديدة وأضرحتها المختلفة ودورها، وكل هذه المنشآت

كانت مثالا باهرا لفنون البناء والزخرفة المتنوعة، التي مازالت إلى اليوم تشهد على تاريخها الطويل المستمر حتى اليوم، والمدارس عبارة عن أحياء جامعية يسكنها الطلبة منذ القرن 13 مجانا حال إقامتهم بفاس ويعطون إعانة يومية تدفع لهم من الأوقاف بانتظام لا يعرف التوقف.

وتعد كل واحدة من هذه المدارس جوهرة فنية، لأن مؤسسيها كانوا حريصين على تخليد ذكراهم في التاريخ، ففي كل منها خشب منقوش، وجبس محفور، وزليج بديع ومرصوص غطيت به الجدران، والرخام فرشت به الأرض؛ وتعد اليوم كلها تحفا عمرانية خالدة تشهد لماضي فاس الحضاري والعلمي والثقافي الضارب في أعماق التاريخ. فالزائر الذي يتجول بفاس ويزور المدرسة العنانية، ومدرسة العطارين، والمدرسة المصباحية بجانب القرويين، وغيرها يقف على نماذج كاملة من الفن الإسلامي الأندلسي، ويتخيل طلبة العلم الذين مروا بها وسكنوها خلال عدة قرون وكانت من أهم مدارس فاس ومساجدها. كما يذكر التاريخ حكايات عديدة جمعت كلها فيما بعد في جامع القرويين خوفا عليها من الضياع، وحرصا على تسهيل الاستفادة منها من لدن الأساتذة والطلبة؛ وبذلك صارت مكتبة القرويين من أهم المكتبات في العالم الإسلامي، لأنها ضمت إلى جانب الآلاف من مخطوطات المغرب والمشرق ما وقفه عليها ملوك الدول المتعاقبة من المرابطين والموحدين والمرينين والسعديين والشرفاء العلويين، سواء من مقتنياتهم الخاصة أو مما جلب إلى المغرب من مكتبات الأندلس الإسلامية الضائعة.

وقد كان للعلماء الباحثين مكتبتهم الخاصة، ويقصدونها للبحث والتنقيب والاستعارة، كما كانت للطلبة مكتبتهم أيضا، وأهم ما فيها الكتب المقررة عليهم، يأتون لقراءتها أو لاستعارتها واستعمالها في منازلهم، ومازال

موقع هذه المكتبة معروفا حتى اليوم عليه تحديد تاريخ إنشائها في القرن الرابع عشر الميلادي.

أما المكتبة الكبرى فإنها رغم ما ضاع منها من مخطوطات وما لحقها من صروف الزمن، مازالت غنية بما تشتمل عليه من نفائس المخطوطات ونوادر الكتب والوثائق مما يعز وجود مثله في غيرها.

هذه نظرة موجزة عن جامع القرويين، ومدارس الطلبة، والمكتبة الكبيرة التي جعلت من فاس عاصمة المغرب التاريخية والعلمية والثقافية والفكرية، والتي كان التعليم فيها مجانيا ديمقراطيا مفتوحا باستمرار في وجه الطلبة من جميع أنحاء المغرب ومن غيره من البلاد الإسلامية بإفريقيا السوداء على الخصوص؛ وكان هم العلماء فيها نشر التعليم واللغة العربية والاعتناء بواقع المجتمع والاهتمام بمشاكله من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومازالت مراكز العلم هذه قائمة بفاس تشهد للعيان بتاريخها الطويل ومجدها رغم عاديات الزمن وظروفه، ولذا كانت مواجهة تطور الأحداث ومظاهر الحضارة المعاصرة قد أثرت فيها ونالت من الحفاظ عليها كتراث إنساني خالد يستحق كامل العناية، ولا يجوز السماح بنسيانه وإهماله، حتى لا يفقد شيئا من روعته، ولا تؤثر فيه السنون ليبقى شاهداً قائما على ما أبدعته يد الإنسان وما حققه فكره في الماضي.

الأندلس

تمثل الأندلس مرحلة مضيئة من تاريخ الإنسانية عامة، لما أنجزته خلال ثمانية قرون من حضارة وثقافة، مكوناتها المجتمعية، وما تركته من آثار في شتى الميادين؛ فقد كان عدد علمائها لا يكاد يحصى، وكانت مدنها مزدهرة وطرق عيشها تبهر من يدرسها اليوم. وإذا كان الإسبان قد أنكروها بتناسيهم لها وإقصائها من التاريخ بعدم ذكرهم لها في مدارسهم وبحوثهم الوطنية فإننا في المغرب لم ننسها، إذ هي حاضرة دائما في كل مناحي، الحياة سواء بأبنائها الذين هاجروا تعسفا إلى المغرب أو غيره أو بعلمها وتراثها اللذين عدا دائما من تراثنا لأن الاندماج بين المغرب والأندلس كان تاما كاملا. وقد عرفنا بعض الاسبانيين حينما يسمعون عن هذه الحضارة الباهرة التي بلغت أوجها في العصور الغابرة يستغربون أن يكون ذلك كله قد جرى في بلدهم وهم لا يعرفون عنها شيئا. وما ذلك إلا للتهميش الذي لحقها والنسيان، بعدم إدخالها في البرامج العامة الدراسية للتعليم العام ليعرفها الجميع ويتحقق من وجودها. وفي فاس كما في غيرها من مدن مغربية كبرى، عادات وتقاليد ترجع إلى الأندلسيين الذين هاجروا إليها وسكنوها، ويقال انه بعد خروج المسلمين من غرناطة وتسليمها إلى الإسبان وقعت أزمة سكنية بفاس، لأن الوافدين عليها كانوا كثيرين لم تستوعبهم المدينة إلا بصعوبة وكان على رأس الوافدين السلطان أبو عبد الله الأحمر الذي يقال إنه سكن في حومة عقبة بن صوال في درب الريال.

وإن إنسانية اليوم وهي تنادي بالتسامح والحوار في حاجة ماسة إلى استلهام النموذج الأندلسي واتخاذه مثالا، لما يجب أن يؤسس عليه المجتمع الحديث من ركائز الإيمان والعلم والحياة عامة.

التعبير والإبداع

رجال التغيير هم رجال الإبداع والابتكار les mutants والتغيير، ولا تغير بدون إبداع وابتكار وتجديد.

. السر الأكبر في تجديد وتغيير المناهج وأساليب العمل.

. النظرة المستمرة تعطى نفس النتائج.

. القطيعة مع الأساليب لا مع النصوص / لا مع التراث.

. الأساليب الجديدة تعطي نتائج جديدة وتفتح آفاقاً عريضة.

. العلوم الدقيقة تتطور.

. العلوم الإنسانية تتجدد. وبها يتمكن من معرفة الإنسان في تطوره وتغيره وتجديده.

. استعارة مناهج كل العلوم للبحث فيها على ضوء مناهج علوم أخرى فيقع التغيير.

. اللغويات/ الجديدة الرياضية.

. الأدب العربي السيرة النبوية: لا يصدر فيها جديد.

. البحث في التراث يبقى جامدا محصورا متكررا.

. علم الكلام الجديد في القرآن على ضوء المتغير الجديد والقضايا الموضوعة على بساط البحث.

. جامعاتنا والتبليغ / مادة العلم بين عالم متغير.

. تعليم الناس: استقالة العلماء في اللغة الأجنبية.

. هل يمكن تطوير حضارة وهوية ثقافية جديدة من عندنا؟

. الجديد بالقديم.

. الغرب غربان، تدريس وتعليم الاختلاف الثقافي والتعدد.

. فكر فقهي جديد.

. توفر المقومات الفكرية والثقافية للابتكار.

. تبني إشكالية جديدة ملموسة من التحديث.

. أفكار وحلول جديدة في كل المجالات بدون استثناء.

. يتجلى الابتكار من وجهة النظر التطورية في المقدرة على الارتجال والتجربة والتغيير وإعادة النظر في المألوف ورؤية الأشياء بنظرة متجددة.

. لابد من أن تكون هناك دائما معارضة للابتكار، لكن لرجاله شجاعة تدفعهم للتغيير والرفض وتجاوز الواقع ولقبول التجديد الإيجابي وفرضه.

. تفادي هجرة العقول وأصحاب المهارات والكفاءات الجيدة التي تتضايق من التحجر الفكري الذي يخفيها او يحاصر أذهانها المتفتحة.

. البحث عن المغامرة هو الذي يوجد الجديد.

. إرادة الابتكار والتميز لتحقيق التجديد في كل الميادين.

. العقول الذكية تتمرد على حدود العلم والواقع وتتجاوزهما.

. التبادل المكثف للمعارف.

. الجديد هو وليد الحالات الاستثنائية والاعتياد المستمر يؤدي إلى الجمود.

. التجديد والابتكار عن طريق الإصلاح: مهمة الجامعات والبحث العلمي.

. شهادات ذات مستوى عالمي معترف بها تقبل الدخول في المنافسة العالمية.

. جهود حقيقية لأذكى الأدمغة.

. عبقرية المستقبل :

. إيجاد معجزات الابتكار: مراكز البحث العلمي في بيئة عمل مثالية نموذجية في كل الميادين العلمية: المجتمعية والإنمائية.

الفضاء المغربي

الفضاء المغربي يجب أن يكون مفتوحا غير محصور في حدود سياسة ألزمنا بها الاستعمار، وهو ما لا يمكن فضاءً مغاربيا من التعبير عن ذاته في تصور فهم جديد للماضي، دون الانغلاق في قومية معينة؛ فنحن في حاجة إلى مقاربة جديدة تفتح مجتمعاتنا بعضها على بعض لتقوية المغاربة وهيكلتهم كالاتحاد الأوروبي، ليكون مفتوحا على طموحات الوضع البشري، فنحن لم نستجب لحد الآن لشروط المرحلة الجديدة وانتظاراتها، وبذلك تبقى الآفاق مفتوحة أمام المجتمعات المغربية، وتقتضي منا السير نحوها، والخروج من العقل القديم إلى العقل الحديث، وممارسة جدية للعلم ولقضايا العقل، وتجاوز سياق الفكر المنغلق ليفرض نفسه بالضرورية في طرح في كل الأسئلة حول المسلمات التي لدينا، وذلك بدراسة علمية قائمة على الموضوعية والمسؤولية النقدية.

إن الإنسانية في حاجة ماسة ضرورية إلى ثقافة السلام والعدل والاحترام في ما بينها، لينجلي منطق سوء التفاهم الذي يجر إلى ويلات الحروب والفساد الكبير الذي ستتبعه، ويلزم الإنسانية أن تكون صادقة قي دعواها، وألا تقول ما لا تفعله، لأن الدمار ينتظرها إذا ما تمادت في السير في طريق الهوى والضياع والاستبداد.

إن عملية التجديد متوقفة على التغيير، وعلى تجديد لغة كل منظومة فكرية تختار لنفسها مبادئ تقوم عليها.

لا يلزمنا في العصر الحاضر أن نبقى عندما حققه الأولون بل يلزمنا أن نبذل جهودا وأن نغير الأصول النظرية كذلك.

تغير الظروف يتبعه لزاما تغير المناهج والنظريات والتفكير، لذلك نحتفظ بما تقتضيه الحياة العصرية. يجب أن نقتلع من الجذور المبادئ والنظريات القديمة ونعوضها بالجديد الذي يوافق عصرنا المتحول والمتغير.

يجب مراجعة اللغة وطرائق استخدامها، لأنها وعاء الفكر لترمز اللغة إلى واقعنا اليوم في الملموس والمحسوس، والحكم على المستقبل قياسا على الماضي لا يجوز دائما إلا في الثابت المطرد. ولن ندرك عصر التحول إلا إذا أدركنا مفهوم التحول على حقيقته، وإن التحول المنشود يكون في الدخول إلى مجتمع المعرفة.

فالتحول المنشود هو أن تكون لنا رسالة فكرية نشارك بها في علمنا بلغة متفتحة متجددة قادرة على معالجة الواقع الحي المتطور.

والسبيل إلى إنشاء فكر منتم إلى عالمنا هو أن نغوص أولا في جذورنا الفكرية، قصد صياغة فلسفة معبرة عن العصر ومشكلاته، وأطروحات الفكر

الحديثة، وذلك بالتوافق بين العلوم الحديثة وتراثنا الفكري، فلا نظل مع من فضل البقاء بتراث الماضي وأغلق نوافذه دون ما يجد ويحدث، ولا مع الفريق الذي ارتمى في أحداث الجديد في العالم الغربي وأنكر كل ما يتعلق بالتراث، وفي مقابل هؤلاء يجب صياغة فكر عربي جديد عصري يجمع بين علم الغرب والصالح من قيمنا وموروثنا.

ولا نحتاج إلى الحديث عن أهمية الثقافة ودورها في تكوين الإنسان وسلوكه وخطابه باعتبار التحولات التي يشهدها العالم والتي تحدث تغييرا كبيرا في مجتمعنا. والعلاقة بين الثقافة والتنمية بجميع أشكالها هي علاقة حيوية، ربما قد لا نتفهم ذلك إلا أن العلاقة بين الثقافة والتنمية وطيدة.

والكثير من قيمنا اليوم ربما لا تأخذ في معظمها بحاجات المجتمع والجماعة، بحيث إنها قيم لا تأخذ في حسابها التغيير والإبداع والتطور مما يحول دون الانفتاح والاجتهاد والحوار. ولذلك فالقائمون على شؤون الثقافة مطالبون بمراجعة مكونات الثقافة المتداولة في مجتمعنا، ومطالبون برصد تفاعلات الثقافة لئلا تلبس عناصر سلبية تخرج بها عن مسارها ورسالتها.

فبين الثقافة والهوية مشكلة دائمة تتمثل على النحو الأول في التوسيع والتركيب بين عناصر عدة في الهوية، و تقوم على العصر والبقاء ما أمكن في إطاره. والعودة إلى الهوية الثقافية تتبعها العولمة في الحاضر وما ينشأ تبعا لذلك من عدم الثقة بالنفس ومن تفسخ اديولوجي.

والمعرفة وسيلة من الوسائل التي مكنت الغرب من حكم بلاد الشرق الواسعة واستعمارها لمدة غير قليلة. أما الاستغراب فنقصد به تلك المعرفة الواسعة الشاملة للغرب وثقافته وحضارته وأنظمته، وفلسفته التي تمكننا من

الإحاطة به، والسير بعيدا في أعماقه، والتغلغل في حقيقتها كما تغلغل المستشرقون في فهمنا ومعرفة عقليتنا وذهنياتنا، فالذين يذهبون إلى الغرب للمعرفة والدراسة يعودون ولهم معرفة جزئية سطحية ببلاد الغرب لا تشمل كل معطياته ولا تتغلغل فيها .

المنبوذون

وهم طائفة كثيرة العدد في الهند تعتبر وضيعة الأصل، يحتقرها الجميع، وتقوم بأبخس الأشغال في المجتمع، ويذكر هذا الوضع اليوم بحالة مجموعة من الشباب الأوروبي الذين يتركون بلادهم ويرحلون إلى الشرق الأوسط للمشاركة في الحروب القائمة بها، ويعتبرون إرهابيين من الدرجة الأولى، وتقوم ضدهم كل الحكومات الغربية التي تخافهم ولا تريد عودتهم إليها فرارا من كل ما قد يحدثونه من شغب وفساد، لأنهم جهاديون يريدون تغيير المجتمع؛ وأغلب هؤلاء من أصول مهاجرة قصدت البلاد الأوروبية بحثا عن حياة أحسن، ولكنها لم تجدها للمضايقات التي تتعرض لها باستمرار.

فبعض شبابها يهاجرون من جديد لأسباب إيديولوجية وسياسية وروحية، ومن بين هؤلاء بعض الشباب الأوروبي الأصلي الذي يبحث ضرورة عن التغيير والثورة، على الأوضاع الاجتماعية بأوروبا التي لم يعد يحتملها ويطيقها، فهؤلاء وأولائك يصبحون منبوذين يكرههم الجميع ويخافهم الجميع ويشكو منهم الجميع، وكل الحكومات تتربص يهم الدوائر وتتبعهم لتوقع بهم تفاديا لما قد يحدثونه من شغب وفساد في النظام والمجتمع.

المعلمة

لقد كانت فكرة إصدار دائرة معارف عامة باللغة العربية تعرف العرب بأنفسهم وبأمتهم، وتكتب بأقلام عربية شريفة وأمينة مجرد فكرة تراود أجدادنا منذ القرن الماضي.

وكان هذا الحلم عزيزا على رواد الفكر العربي الكبار وعلى الجامعة العربية منذ سنوات وجودها الأولى. ولا يستغرب والحال هذه أن يكون من بين أعضاء أول لجنة شكلت لوضع لبنات هذا العمل التاريخي الضخم عمالقة أمثال "ساطع الحصري" و "شفيق غربال" و "طه حسين" وغيرهم.

وسافر المشروع من لجنة إلى لجنة، ومن مؤتمر إلى مؤتمر، وكاد اليأس يشتت حلم الأمة ويحوله إلى جهد فردي، حيث فكرت أقطار عربية في إصدار دائرة المعارف العربية منفردة. وصدرت في أوقات متفرقة موسوعات فردية، على غرار موسوعة، فؤاد افرام البستاني، وصدرت الموسوعة العربية الميسرة، ولكن ذلك لم يثنط من عزيمة الغيورين من أبناء الأمة على المضي قدما في تحقيق الحلم، تجاوزا لكل الحواجز والصعوبات. ومع قيام المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم كان مشروع الموسوعة العربية الكبرى من أهم المشروعات التي احتلت في برامج المنظمة ونشاطاتها حيزا خاصا ومكانا مرموقا.

وعلى أيدي خبراء مؤمنين أمثال عبد الرحمن بدوي، ومحمد يوسف نجم، ومحمد أحمد خلف الله، وعلي مختار، وشاكر مصطفى وغيرهم، بدأ العمل التصوري والفعلي في نقل المشروع من برودة رفوف اللجان والمؤتمرات إلى حرارة الواقع والحياة؛ وبرغبة كريمة من الحكومة العراقية استضافت

بغداد المشروع، وقد بدأ فعلا في تشييد الصرح الفخم الذي سيحتضن مشروع الهوية العربية، بعد أن تم توقيع اتفاقية قيام الموسوعة العربية الكبرى كمؤسسة رائدة من مؤسسات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، يكون مقرها مقر بيت الحكمة العربية الشامخة في التاريخ وفي الحضارة.

ونعود لموسوعة العرب الكبرى فنقول إن الهدف الذي رصد لهذا العمل الضخم هو معرفة الإنسان العربي نفسه وأمته بموضوعية وعمق، ومعرفة العالم المعاصر بوضوح ودقة بعيدا عن التحيز الإيديولوجي السياسي منه أو المذهبي أو العنصري أو الطائفي.

ويكفي أن نشير إلى أن الموسوعة ستصدر في حوالي ثلاثين مجلدا يكون المجلد الواحد منها في حوالي ألف صفحة من الحجم الموسوعي المعتاد.

وهكذا سيتمكن العرب لأول مرة في تاريخهم من وضع عمل تدويني جاد، يعتمد الموضوعية العلمية والمعاصرة الواعية ويثبت الهوية العربية، ويكون مرآة تكشف للعالم حضارة العرب الكبرى: حجة باقية في ضمير الحاضر وفي أفق المستقبل.

ولأننا أمة ذات ماض مجيد وحاضر نسعى فيه إلى مجد جديد، سنظل نفخر بميلاد موسوعة العرب الكبرى صرحا جديدا يقف في وجه التحديات الصهيونية والإمبريالية التي تريد أن تسرق منا قبس التاريخ ووهج الحاضر.

بقي أن نقول كلمة حب في حق بغداد السلام، بغداد دار الحكمة والمدرسة النظامية، والمدرسة المستنصرية، بغداد إخوان الصفاء وخلان الوفاء، بغداد الحافلة بكل إنجاز ثقافي لأجل الأمة، نقولها لاحتفائها باحتضان

الموسوعة ولتحملها قسطا غير قليل من تكاليف الإنجاز والديمومة رغم صعوبة المرحلة التاريخية التي ستخرج منها حتما براية الانتصار.

كل الأمم والناطقون بكل اللغات يحاولون جعل هذه اللغات قادرة على التعبير عن كل شيء بدون استثناء، فيؤلفون معلومات عامة شاملة تحتوي على كل أنواع ما فكر فيه الإنسان وسجله، فتكون بذلك المعلمة مقربة لكل ناطق بها يريد معرفة شيء ما في وقت قريب وبكل الطرق. وقد أسست اليوم أيضا مسجلة إلكترونية، غير مكتفية بالورق الذي كان حاملا لها دائما. وإصدار هذه المعلمة الموسوعية باللغة العربية، تتناول كل مجالات المعرفة في مستويات عدة وتجمع موضوعات الخلاف، وتنبه عليها باللغة العربية، على غرار ما فعله المستشرقون الذين تعتبر موسوعتهم الإسلامية اليوم المكتوبة بعدة لغات المصدر الأول لكل من يبحث في الإسلام واللغة العربية وثقافتهما وحضارتهما وتاريخهما. ولا نملك للأسف موسوعة ألفناها لأنفسنا لهذا الغرض، رغم كثرة عدد العلماء الباحثين بيننا، وكثرة المجالس العلمية، وجامعاتنا التي تحاور العلوم كلها وتتبع التأليف فيها، لذلك فنحن حتى الآن مقصرون في حق ثقافتنا وحضارتنا، لأننا لم نعط عنها صورة كاملة لغيرنا كما نشاء ونريد، فنحن حتى الآن لم نكتب هذه الموسوعة بلغتنا العربية على كافة المستويات، ولم ننقلها بأنفسنا إلى اللغات الأجنبية، لنعطي الصورة الصحيحة عنا قديما وحديثا.

وجدير بنا اليوم ألا نكتفي بما كتبه الأخر عنا، رضينا عنه أو لم نرض، لأن العمل الموضوعي المطلوب منا مازال ينتظرنا أن نقدمه لغيرنا وفيه نظرتنا الصحيحة الشاملة عن الإنسان والحياة، فمتى يكون ذلك متى؟ يجتمع لدى علمائنا الذين لهم من العقل والمعرفة وحسن التدبير والتفاهم والانضباط

الآن الشيء الكثير الذي يتطلبه هذا العمل ويستوجبه ليرى النور، ويتقبله غيرنا تقبلا حسنا وتشيع به المعرفة في أوساطنا شيوعا حقيقيا يرفض الأوهام والمغالطات الزائفة التي مازالت تعيش للأسف في بعض العقول عندنا.

إن هذه الموسوعة المكتوبة أو الإلكترونية تحذق باللغة العربية وبغيرها من اللغات هي خير ما نحن في حاجة إليه اليوم، لمعرفتنا لأنفسنا وغيرنا ضبطا علميا يكون في متناولنا وفي متناول الجميع.

المهاجرون

يعود إلى المغرب كل سنة في فصل الصيف كثير من المهاجرين الذين يسكنون بفرنسا أو بأوروبا الغربية كلها، وذلك لقضاء عطلتهم مع أحفادهم وأولادهم، وللتمتع بالشواطئ المغربية والمغرب كله. والهجرة من عادات الإنسان منذ القدم، فقد كان دائما يترك أرضه التي نشأ فيها وحيدا أو مصحوبا بأهله وذويه.

وفي بداية العصور الحديثة هاجرت شعوب أوروبية بأعداد وفيرة إلى أمريكا الشمالية والجنوبية، وإلى استراليا ونيوزيلندا. ثم بعد ذلك إلي المستعمرات التي احتلتها في إفريقيا وآسيا، حيث عاشت سيدة مالكة متحكمة، تستغل الأرض وأهلها، لأنها تسيطر عليهم وتستفيد من خيراتهم كل الاستفادة.

وهؤلاء الذين ذهبوا إلى أوروبا إنما قصدوها أول الأمر بعد الحربين العالميتين الكونيتين في القرن الماضي، وذلك أولا للمشاركة في تحريرها، ثم لبنائها بعدما أصابها الخراب والدمار.

وقد عرف المغرب، وكبريات، المدن ومدينة فاس على الخصوص مجيء جماعات كبيرة استقرت بها ولم تغادرها بعد ذلك؛ فلما دخل الأتراك الجزائر هاجرت جماعات كبرى وسكنت بفاس، ومازال أبناء هؤلاء المهاجرين معروفين بها حتى الآن.

وبعد ضياع الأندلس نهائيا بتسيلم أبي عبد الله بن الأحمر لغرناطة إلى الإسبان الغالبين، جاءت جماعات أخرى كبيرة إلى المغرب، فسكنوا الشمال وعمروا مدنا عديدة كتطوان والرباط،أما في فاس فقد حصلت أزمة كبيرة في السكن أشار إليها ابن الوزان الفاسي في كتابه، وفصل القول فيها وكان من القادمين السلطان ابن الأحمر وعائلته التي سكنت بطريق عقبة بن صروال، والدرب مازال موجودا، إسمه درب الريال. وعند دخول فرنسا إلى الجزائر هاجرت أقوام عديدة إلى مدينة فاس التي حصلت فيها أزمة سكنية معروفة، وقد أسكن السلطان مولاي عبد الرحمان هؤلاء المهاجرين بشاطئ وادي فاس والأحياء وراءه، وداخل المدينة ومنها حي القلقليين الذي كثروا به، حتى كان لسكان المدينة مثل شائع يقولون فيه " اذهب إلى حي القلقليين ودق باب أي منزل تشاء واطلب التلمساني يخرج لك منه خمسة ".

وكانت هذه أكبر هجرة إلى مدينة فاس، لأنها شملت جماعات من جميع الطبقات، تجارا ورجال صناعة وحرفيين، كأوائل الذين كانوا تابعين للزاوية الوزانية فقد اتصلوا بنفس الجماعات بالمدينة اتصالا وثيقا، لأنه كانت لهم نفس الأدعية والتراتيل يعقدون حلقات جامعة لقراءتها والاستماع إليها. ولم تكن هذه الهجرة هي الأخيرة، بل أعقبتها أخرى بعد ثورة بوعمامة بالجزائر في الثمانينات خلال القرن التاسع عشر، ويشار إلى أن مجموعات من المغاربة قطنت الجزائر، وكانت تشتغل في ميادين عدة، وفي الفلاحة خلال

فصل الصيف على الخصوص، وكانوا يؤدون هذه الخدمات المصرح بها أكثر من غيرهم، لكنهم عوملوا أقبح معاملة وأخسها بعد الاستقلال. فقد طردتهم الجزائر بعدما استولت على ممتلكاتهم بغير حق ولا قانون، وما ذلك إلا للتضييق على المغرب، وإحداث البلبلة في صفوف المغاربة، لكنهم استقبلوا استقبالا حسنا وهيئت لهم الظروف ليتابعوا حياتهم في بلدهم، وهذه وصمة عار في جبين المسؤولين الجزائريين منذ السبعينات خلال القرن الماضي لن يمحوها مرور السنين وتعاقب الأيام، لأنها جريمة ضد الإنسانية لا تغتفر، ولا يبررها أي مبرر كيف ما كان، ولم يرتكب مثلها أي شعب من الشعوب المتعاقبة في حق جيرانه الأقربين الذين هم من لحمهم ودمه.

كان الدافع إليها الحقد الدفين والانتقام الأعمى، في حق أناس لم يصدر عنهم ما يبرر ذلك البغي والعدوان، ولم يصدر والحمد لله من المسؤولين المغاربة ما يقابل ذلك في حق المقيمين من إخواننا أبناء الجزائريين الذين كنا نحبهم ونعزهم ومازلنا كذلك إلى اليوم.

طريق الانعتاق

يعرف الإنسان في العصر الحديث مشكلات عدة تعترض طريقه من كل نوع يتخبط في صعابها؛ وهو لا يفتأ يكد ويجتهد للتغلب عليها بشتى الوسائل التي يملكها. وأكبر سلاح لديه في هذا الميدان هو العلم الذي يخضع لإرادته شيئا فشيئا أهم عناصر الطبيعة التي طالما استعصت عليه في الماضي، والتفكير المنهجي الذي من شأنه أن يدفعه إلى تحقيق أهدافه بأقرب السبل.

غير أن هناك ظاهرة عجيبة يقف أمامها حائرا بل يائسا، فهو يرى أنه كلما ارتقى عقله وتفكيره وازداد علمه وتقدمت صناعته كثرت مصاعبه،

وقلت راحته، وأصبح مرفأ السعادة والهناء الذي كان يظن أنه على وشك حلوله يبتعد عنه ويختفي في الأفق، كأنه السراب الذي يلمع من بعيد ولا يلحقه أحد... ولذلك فهو يلاحظ بكل مرارة أنه بهذا العقل الجبار وهذا العلم الذي يفتح أمامه أبوابا ظلت مغلقة إلى العصر الحديث لم يصل إلا إلى عكس ما كان يرجوه، فأدويته التي لا تحصى لم تبرئه من أمراضه كلها، وآلاته التي تفنن في اختراعها وبائها صيرته عبدا لها تستخدمه قبل آن يستعملها، حتى إنه لم يزد على أن أصيح دولابا من دواليب المعمل الذي يعمل فيه.

من أجل هذا نجده يعاني نكسة خطيرة تظهر آثارها في قلقه من واقعه، وخوفه من مستقبله، ويأسه من نفسه. ذلك أننا نجده في المجتمعات التي قطعت أشواطا بعيدة في التقدم خاضعا لطغيان العلم، يؤمن به ويكفر بغيره من المبادئ والمذاهب النى لا تقوم على العقل، ولا تدعمها البراهين العلمية والحجج المنطقية، ظانا أنه وجد بعد طول بحث الطريق السوي للحصول على السعادة الأبدية، بعد ما أخطأها آباؤه قرونا طويلة. فأعجب بنفسه وازدهاره وانتصاره، لكن حربين عالميتين ما فتئتا أن انقضتا عليه في القرن الماضي فخربتا ما بنى وهدمتا ما شيد وأودتا بحياة الملايين من البشر التي ضاعت ضحية الطغيان والجهل والغرور والتعصب.

وكان من أثر ذلك أن تأكد هذا الإنسان - أخيرا - من تفاهة عقله الذي دفعه إلى الإيمان بسلطان العلم وقوته دون غيره.

ويعود إلى نفسه فيرى أن هدفه إلى غاياته النفعية ومطامعه المادية أعمته عن مصلحته الحقيقية، فساءت حاله ولم يعرف الاستقرار الذي ينشده ويهفو إليه، كما لاحظ أيضا والأسى يحز في نفسه أنه فقد شخصيته

وذاتيته، وأصبح ينقاد كالحيوان للدعاية التي توجهه وتتحكم في نفسه وعقله فلا تترك له الوقت الكافي لتكوين رأي شخصي فيما يعرض له من الأمور العامة، بل ترغمه على تبني آراء غيره، لأنه ليس لديه الوقت الكافي والخبرة اللازمة لإمعان النظر والنقد والمقارنة، وبذلك ضعف عقله ووهنت إرادته، وغدا آلة تسيرها وتوجهها طائفة قليلة لمصلحتها. لقد انقلب إنسانا قطيعا homme standard أفكاره محدودة وآفاقه ضيقة، يعيش انقيادا وخضوعا جره إليهما تغافله وإفراطه في طلب اللذة والنعيم الماديين.

هذه قصة الإنسان في البلاد التي وصلت حدا مرموقا من الرقي في ميادين التقدم العلمي والاقتصادي والسياسي والاجتماعي وهي بالتقريب حالته في ظل الدكتاتوريات التي عرفها العالم الحديث بكيفية مهولة، فهى تسد المنافذ على شعوبها، وتلجمها وتقتل فيها الشخصية، بدعوى التضحية في سبيل الصالح العام والعمل على ما فيه خير الأمة. تصطاد الأحرار وتنكل بهم وتنصب لهم الأفخاخ لتوقع بهم حتى تنجو من تنطعهم وتسلم من انتقاداتهم وما قد يسببونه من فوضى وعصيان.

وهكذا يرى الإنسان نفسه - مرة أخرى وهو يهتف بما لا يريد، ويصفق لما لا يرضاه، ويسكت مرغما عن المخازي، ويتعامى عن الفواحش، ليسلم من الظلم والجبروت، فينكمش على نفسه حتى تنقطع صلاته بالواقع فيرى الأحداث بمنظار خاص هو في أغلب الأحيان يكون بعيدا عن الحقيقة والواقع.

أما في البلاد النامية الحديثة العهد بالاستقلال، فالإنسان يعرف ثورة جذرية تكتسح كل مظاهر الحياة لديه، فهو يجاهد للقضاء على مخلفات الاستعمار الذي استعبده سابقا، لاسترجاع كرامته الإنسانية التي داسها المتغبلون واستخفوا بها. كما أنه يحارب الجمود الذي ران على فكره وهيمن

على عقله عصورا طويلة ليخفف عن نفسه وطأة الخرافات والأساطير التي طالما صرفته عن الاهتمام بالواقع وألهته عنه.

وهو في نفس الوقت يحاول - بعد اتصاله بالعالم الحديث - أن يكيف حضارته ليعيش عصره ويستفيد من حسناته، غير أن ثورته هذه - وهي لازالت في بدايتها- ستتعثر كما كان منتظرا في مشاكل اقتصادية وسياسية وإدارية وثقافية ولغوية، لم يكن يقدر خطورتها في الماضي، فانهالت عليه تحد من انطلاقته وتعترض وثبته.

ويزيد في صعوباته انغماسه في الماديات، ونهمه الذي يدفعه بعد الحرمان الطويل إلى محاولة التمتع أكثر ما يكون بما انتزعه من يد المستعمر، متوهما أن نعيم الحياة في السيارة والثلاجة والحاسوب وغيره من الآلات، كأخيه الذي عرفناه من قبل في مجتمعات أرقى.

وهكذا نرى هذا المجتمع النامي وثابا متحفزا يغار على استقلاله وكرامته وحريته التي ضحى بالغالي والنفيس لاسترجاعها، إلا أنه كثيرا ما يخطئ الصواب، إذ يظن الحلول في اعتبارات لا مساس لها بالواقع. وعلى كل فهو يبحث عن الاستقرار الذي لم يعرفه زمن الاستعمار، ولا زال اليوم بعيدا عنه.

كل ذلك جعل العالم الحديث يمتاز بظاهرة لا يجادل فيها أحد وهي الخلل والبلبلة: فكأن الهدوء الذي ينزع إليه الإنسان استحال، وبرزت مكانه بصورة بشعة الخلافات الدولية، والمشاحنات الطبقية والفلسفية والعقائدية، بل الجنسية، وبينما تجد طوائفه تتمتع، ترى أخرى تموت جوعا وتعيش في حرمان مؤلم.

قال قوم إن العلم أصل كل بلاء، وانتزعوا منه ثقتهم واتهموه بأنه جر ويلات الحربين العالميتين، وأنه يهدد الإنسان بالخراب الكامل الشامل، إذا ما نشبت حرب ذرية لاتبقى ولا تذر.

فأجاب العلماء بأنهم يقومون بأبحاثهم لأجل العلم وتقدمه، أما التطبيقات فتأتي في المرحلة الثانية، وأن العلم في طبيعته ليس نعمة ولا بلاء، وإنما الإنسان الذي يستخدمه هو الذي يسير به في طريق الخير أو الشر. فالذرة التي فككها الإنسان لا تستعمل فقط في إنتاج القنابل المخربة بل تصلح أيضا لعلاج أمراض مستعصية وقف الإنسان أمامها عاجزا من قبل.

ثم يتهم العلماء الإنسان أيضا بأنه لا يتطور بمثل السرعة التي يتطور بها العلم، فالأفكار الاجتماعية وكثير من القوانين التي تحكمه في عصر الذرة هي نفسها التي خضع لها في القرون الماضية، والتقاليد العقيمة تقف في طريقه وتحد من جريه لمسايرة تقدم العلم الذي لا يقف.

وفي رأيي أن هذا الإنسان القلق الحائر لا يمكنه الاستقرار ولن، يعرف الطمأنينة إلا إذا كان واعيا لحاله ولعصره ومستلزماته وتأكد من أن الجري وراء الماديات والتهافت عليها لا ينهي مصاعبه ولا يجعل حدا لمتاعبه، فالمسألة إذن ترجع إلى التربية والثقافة قبل كل شيء.

فإلى جانب العلوم التي تقويه وتجعل كل شيء في خدمته، هناك المعارف الإنسانية العامة التي تعيده إلى نفسه وتذكره بتاريخه وتعينه {في خدمته هناك المعارف الإنسانية العامة التي تعيده إلى نفسه وتذكره بتاريخه وتعينه} على اكتشاف مواهبه، وتفتح قرائحه التي تدفعه لتحسين مصيره بكل شجاعة وحزم وإيمان .

يجب أن يهدف تكوينه إلى خلق إنسان مستنير واع، يثق بقوته ويؤمن بنفسه وحقه في الأمن والحرية، ويستهدف المثل العليا ويعرف تبعاته، ويقدر مسؤولياته في بناء المجتمع وخدمة الإنسانية.

كما يلزم أن يعود إلى طريقة التفكير العلمي، ويتمرن وينشأ على النقد الصحيح، بالعمل على إزالة المعتقدات الفاسدة والآراء السابقة والتعصب الأعمى.

بذلك كله يتخلص من رواسب الماضي، ويجعل همه التطلع إلى مستقبل أسعد يكون فيه السيد الذي يهدف كل شيء إلى خدمته وإحلاله المقام الأول في الحياة، فيشعر بذاته، ويتخلص من العقد النفسية التي طالما أعاقته عن العمل والكفاح المستمر، ويستعيد ميزاته الخاصة التي توقف طغيان المجتمع عليه، وتمكنه من رفع صوته عاليا لإبداء رأيه، والإعراب عن وجهة نظره في كل المسائل التي تعرض، بدل أن يبقى بعيدا عل الحياة لا يحرك ساكنا أمام مشاكلها، ولا يحاول التدخل فيها كأنها لا تعنيه في شيء.

وعند ذاك يسترجع حريته التي لا يستطيع التنازل عنها زمنا طويلا، وتحيا فيه نزعة الخلق والإبداع عوض القطيعة التي كادت تجعل منه مخلوقا من نوع ينساق لغيره ويخضع له.

ولن يتم له هذا إلا باعتبار القيم الجديدة التي تضيء جوانب الفكر والحس، وتعمل على تحريك الطاقات الخلاقة المبدعة الكامنة في أعماق كل إنسان، حتى يستطيع أن يهيئ لنفسه وللأجيال التي تأتي بعده ظروفا وفرصا أسعد.

التعـليم

كان التحاقي بالتعليم الابتدائي مباشرة بعد الانقطاع عن الدراسة الثانوية، وقد اشتغلنا أولا في بعض المدارس في فاس، وفي البادية المحيطة بها، إلى أن تم التعيين بالخميسات، حيث كنا ندرس اللغتين العربية والفرنسية والترجمة، وهناك تم ترسيمنا في التعليم الابتدائي كموظفين رسميين للدولة. وذلك في أيام المقاومة الكبرى بعد نفي السلطان ابن يوسف محمد الخامس. وفي أثناء ذلك لم نكن ننقطع عن الدراسة وبعد الحصول على دبلوم اللغة العربية بمعهد الدراسات العليا بالرباط تم انتقالنا إلى ثانوية مولاي يوسف التي درسنا بها من قبل.

وكان التعليم حين ذاك يشمل كل المواد، بما فيها الرسم. ويتميز عن التعليم الذي يعطى في الثانوية الفرنسية بأنه لا يشمل مادة الموسيقى، ونحن نرى اليوم بأن التعليم وهو التكوين الأولي للإنسان يجب أن يشمل كل المواد بما فيها مادة الرسم والموسيقى.

فتلامذتنا اليوم يجب أن يتقنوا أناشيد يتغنون بها، لأنها تساعد على تكوينهم الفني استعدادا للمستقبل، وذلك بأن نختار مجموعة من النصوص الشعرية ذات الموضوعات المتعددة ويلحنها لكل المستويات المشتغلون بالموسيقى، وتدفع تسجيلاتها لكل المدارس قصد أن يلقنها الأساتذة لجميع تلامذتهم في الأقسام الابتدائية والثانوية الأولى، ويرفع الصغار أصواتهم بها منشدين مترنمين، مما يساعد على تكوينهم العام، وتقوية نفسيتهم ومخيلتهم فلا يبقون ساكتين منشغلين بتعلم القواعد في كل المواد بل تنفتح وتتقوى شخصيتهم، ولا يبقون ساكتين كما عليه الأمر حتى الآن.كما أن هذا من شأنه أن يشجع الفن والفنانين عادة، فيخرجون من الحياة الضيقة التي

عرفوها أو يعيشون فيها ويصبح لهم ذكر ومردود مالي تساعدهم به الوزارة في العيش. تعليمنا يجب أن يشمل في كل أطواره هذا وغيره، ليصبح تعليما يساعد على تفتح الشخصية وبنائها بناء قويا من أجل المستقبل وذلك أيضا بتعليم التلاميذ منذ المدرسة الأولى حب الكتاب والقراءة، ولا نقصد بالقراءة تعلم الحروف وتهجيها بل هي كل ما يجعل منهم محبين للكتاب والقراءة العامة في المستقبل طالما عرفت شعوبنا بأنها لا تقرأ كالشعوب الأوروبية ولا تشتري الكتاب والصحيفة بانتظام، دون أن ينبه الذين يكررون هذا الكلام إلى قصور التعليم في هذا الميدان، لأنه ينحصر في مقدمات وقواعد تضيع مع مرور السنين، بينما للغربيين منشورات واسعة وتكوين عام على حبها والتعلق بها تعلقا مستمرا لا يضيع مع الزمن، فهي مادة للتدريب على القراءة المستمرة، يجب أن يخصص لها حيز خاص لكل البرامج والنظم، بحيث لا يهيأ التلميذ للامتحان فقط وإنما للحياة كلها. ونلاحظ بكل أسف انه ليس هناك سلاسل من الكتب تنشر خصيصا لذلك، ولا تتعلق بالمقرر فحسب وإنما للثقافة العامة وللتكوين الحر المستمر .

ومثال آخر: فما أكثر رجال التعليم في كل المستويات، وما أكثر نقاباتهم التي لا يعنيها أمر الكتاب ونشره، وليس لها منشورات في كل المواد، لتعمل بها على تقوية الأستاذ في مادته ومصاحبته في عمله بانتظام، فلا يشعر بالضعف والوهن الذي كثيرا ما يذهب بتحمس بعضهم لمهنتهم، فيعيشون في رتابة قاتلة وضيق أفق، يسد عليهم كل منابع الثقافة الحية التي تجعل منهم مؤطرين مبدعين خلال مسيرتهم المهنية. وإذا كان الإبداع والابتكار منعدمين في مجتمعنا فلهذه الأسباب التي ذكرتها وللخمول الذي يهيمن على الأفكار ويجعلها جامدة لا تتجدد ولا تتغير.

تعليمنا في حاجة ماسة إلى التجديد والتغيير المستمرين اللذين يتحركان بحركة الحياة؛ وما أكثر ما تتحرك الحياة وتتغير دون أن يكون لذلك صدى في نفوسنا وأعمالنا، لأننا لا نستوعبه ونفهمه ولم نتكون تكوينا قويا يهيئنا لمواجهة التغير وصنع التجديد وقبوله.

إن التعليم الذي يغيب عنه الفكر الحر والثقافة الحديثة، والتكوين الشامل الذي يربي على متابعة القراءة وعلى الفضول الفكري يبقى ناقصا، لأنه يتشبه فقط بمعرفة القاعدة التي تنسى بعد زمن قريب ويهمل التكوينات الأساسية التي يلزم أن تواكبه لتقويه وتعاضده وتمنحه ما يلزمه من فكر متين واسترسال لا يعرف الكلل أو الملل.

الفضول الفكري إذا ما تدرب عليه التلاميذ، وذاقوا حلاوته منذ نعومة أظافرهم يمثل خير ما يستند إليه الإنسان ويعتمد عليه، لينمو نموا متوازنا يقوده إلى الانفتاح، بعيدا عن كل انغلاق وانكماش. وعرف التعليم في المغرب في عالمنا تطورا كبيرا وانتشارا واسعا منذ الاستقلال فقد تخرج الملايين من الشباب والشابات الذين تعاونوا على بناء وطننا بناء عصريا يجدده ويبعده عن الحالة التي كان عليها من قبل، لبناء المواطن الجديد الذي لا يفصل عن أصوله، ويلتحق عن جدارة واستحقاق بفكر العصر ومنطقه، وأساليبه العلمية التي تفارق الجمود والركود وبهذا تكون رسالة هذا التعليم رسالة وطنية شريفة تؤديها المدرسة باستمرار. ولا يعجبني ما يتعرض له من انتقاد من لدن بعض الجاهلين الذين يرون في المدارس الأجنبية المثل الأعلى، ويتهافتون عليها ويؤدون لها أثمانا عالية وكأنهم يهيئون لإنتاج فكر أجنبي معد للتصدير إلى الخارج، لا ليعيشوا في وطنهم بين أبناء أمتهم حياتهم كلها، وبعبارة أخرى تهيئ إنسانا له ثقافة الأجانب منفصلا كليا عن ثقافته

وأصولها وهو ما يسمى علميا "ojm" آي مخلوق مفصول فصلا عن جنسه، إن المدرسة الحقيقية، هي التي تعلم الناس أولا ثقافتهم وحضارتهم والتشبث بها، كما تعلمهم اللغات الأجنبية، وأصول الحضارة الحديثة، والعلم الحديث الذي يؤهلهم ليكونوا مواطنين مستنيرين مجددين واعين بأنفسهم وبالعالم الذي يعيشون فيه، ويشاركون في تغيراته التي لا تقف عند حد.

ولهذا فالمدرسة لا يكتفي فيها بقاعة الدراسة والمقاعد التي يجلس عليها التلاميذ والسبوة وإنما يجب ألا يغيب عنها فكر الخلق والابتكار الذي لا حياة بدونه اليوم، فالعملية التعليمية يجب أن يواكبها التمرين على الفكر الخلاق المبدع، وذلك بتعليم الموسيقى والفن والرياضة. فالفكر الموسيقي يجب أن يكون حاضرا في مدارسنا منذ السنين الأولى بحيث تهيأ أناشيد ينشدها التلاميذ ويرفعون أصواتهم بها في قاعة الدرس أو خارجها، تعبيرا عن أنفسهم ووجودهم، كما يجب أن تعطى لهم دروس في الرسم باستمرار، لأن تعليما يغيب عنه الفن يبقى غير نافع ولا يؤدي رسالته كاملة مهما فعل.

التمرين على الخلق والابتكار، بعيدا عن الاقتصار على الإملاء والقواعد أصبح اليوم الشغل الشاغل في التكوين، وكذلك القراءة وتحبيبها إلى التلميذ منذ نشأته الأولى تجعله محبا للكتاب فضوليا، يبحث بنفسه عن المعرفة، ولا يقتصر على ما يتلقاه في المدرسة، وهذه مهمة الوزارة التي من واجبها أن تكون لها منشورات متعددة في موضوعات متفرقة تنشرها، ليقتنيها التلاميذ بالإضافة إلى الكتب المدرسية فهي توسع آفاقهم الذكية وتأخذهم إلى عوالم معرفية وعلمية تبدأ بسيطة وتسير في التنوع واتساع، مصاحبة لأعمار التلاميذ ترضي فضولهم وتزيد في معرفتهم باستمرار.

لا تعجبني الانتقادات التي يوجهها لمدرستنا الوطنية جهلاء بشؤون اللغة وتطور المجتمع بمحافظتهم وجمودهم أمام الثقافات الأخرى التي تحبب معرفتها والاستفادة منها دون الفناء فيها. إننا نرى جماعة وهي قليلة لحسن الحظ لا هم لهم إلا النيل من سمعتنا التي تتجدد باستمرار، وهي تحافظ على ثقافة البلاد ولغتها وحضارتها في مسيرتها المتجهة نحو الغد الأفضل، كما يجب أن تصاحب العملية المدرسية عملية أخرى أوسع وأشمل تساندها منشورات ومجلات وكتب غير الكتب المدرسية في كل أنواع، المعرفة يقرأها التلميذ وهو يتقدم في السن، فتعينه على تفتتح آفاقه، وتبعده عن كل أنواع الانغلاق التي عرفها وأساءت إلينا من قبل حينما كنا نبقى منكمشين على أنفسنا غير واعين لما يجري حولنا ولم يثقف عقولنا غير الآخرين، إن الدروس في توجيه العقل وتمرينه على الخلق والابتكار والإبداع أصبحت اليوم تعطى لزاما للتلاميذ في المدارس الأوروبية والأمريكية لأن من شأنها أن تقويه نفسيا وتبني مواطنين أقوياء ذوي فكر حر لا يتسامحون غي حقوقهم الإنسانية ولا يتنازلون عما يؤكد فكرهم ووجودهم.

المدرسة الحديثة

كان لأخي الأكبر رحمه الله فضل كبير في تسجيلي بالمدرسة العصرية الجديدة لتعلم اللغة الأجنبية، بعد حفظ القرآن الكريم وقضاء وقت لا بأس به في المدرسة الوطنية العربية، والدراسة بجامعة القرويين التي تمرنت فيها على استعمال الكتب الصفراء الخاصة بها، ومعرفة أصلها والتمييز بين النص الأصلي والشرح والهامش والتعليق. وأقبلت على دراسة اللغة الأجنبية بنهم كبير جعلني أستعملها بل أتقنها في وقت قصير. وقد فتحت لي بذلك أبواب واسعة في الحياة. خرجت بها من المنغلق إلى المنفتح؛

وبعدما كانت مشاهدة الأفلام السينمائية منحصرة في الأفلام المصرية الناطقة بالعربية صرت أقصد دور السينما بالمدينة الجديدة مباشرة لمشاهدة الأفلام الفرنسية والأوربية والأمريكية، التي كانت كلها ناطقة باللغة الفرنسية؛ وبذلك انفتح المنغلق على مصراعيه ودخلنا المكتبة الحديثة واتصلنا بأنواع العلوم والآليات مباشرة دون أن ننتظر وصول الترجمات العربية. وكان للدراسة بثانوية مولاي إدريس أثر فعال لكل هذا، لأن التلاميذ بها درسوا على مجموعتين من الأساتذة المغاربة والأجانب الذين لا ننسى إخلاصهم في عملهم وحبهم لمهنتهم. وكان في ذلك انقلاب كل يوم: في الحياة وفي التوجه، وفي المعرفة، ما زلنا نعيش آثاره بعد مضي العشرات من السنين حتى اليوم.

لقد أصبحت لنا إنسانية جديدة كنا بها متمسكين في ثقافتنا وفي معرفتنا للغة العربية ولثقافتنا الإسلامية، كما أصبح لا يغيب عنا التاريخ العالمي العام ومساحات معرفية وثقافية تمكنا منها بعدما كانت غائبة عنا، واتصلنا مباشرة بالكتاب الفرنسي وبالصحافة الفرنسية ومحتوياتها التي تتسع لكل شيء، ولا يكاد يغيب عنها سوى القليل؛ كما أصبح منطقنا العام يتجاوب مع كل الأفكار وكل الأحاسيس والمفاهيم الدقيقة التي يتطلبها العصر.

ومازلنا نشعر بنتائج ذلك الانقلاب الكبير الذي حصل في حياتنا وما أدخل عليها من تغيير، مازلنا نشعر بحلاوته ونحس بها حتى الآن، فقد كانت دراستنا بالمدرسة الثانوية جدية للغاية تعادل بين التكوين في العلوم الدقيقة وفي العلوم الإنسانية، وبذلك اجتهدنا في نفس الوقت لنيل الشهادة المقررة، وأضفنا إليها شهادة الترجمة، التي كانت هي أيضا ذات نفع وفير، ولم ننتظر

طويلا فقد التحقنا بالتعليم الابتدائي الذي أسند إلينا فيه وبالوقت نفسه تدريس اللغتين الفرنسية والعربية. وإذا كانت الإدارة حينذاك تسهر على تلقيننا مبادئ التدريس باللغة الفرنسية وتمدنا بمصادر عدة هيأتها لذلك، فإنه لم يكن لدينا ما نستعين به في تدريس اللغة العربية، سوى اجتهادنا الخاص ورغبة منا في ذلك، وقد كان السؤال الخاص دائما هو كيف نلقن لتلامذتنا الصغار ما علمناهم في نفس اليوم باللغة الفرنسية، وقد اكتشفنا أثناء ذلك حرص التلاميذ رغم صغر سنهم، وحبهم بل وتشجيعهم لنا على النجاح في مهمتنا. ثم كان اجتياز التعليم الثانوي بعد الحصول على الشهادة الخاصة به، مما زاد في توسيع آفاقنا بعد معاشرة ثلة مختارة من الأساتذة المغاربة والفرنسيين، الذين أعانونا على رفع المستوى العلمي، وتوسيع معارفنا، والمشاركة بكيفية فعالة في كل الميادين الثقافية.

ونذكر بهذه المناسبة أهمية العلوم الإنسانية في تكوين العقل وترقية مداركه، إذ أن لها أهمية خاصة لا تقل أهمية عن العلوم الدقيقة، ويخطئ كثير من الناس عندنا حينما ينصرفون لدراسة العلوم الدقيقة وحدها، مكتفين بمعادلاتها ونظرياتها مهملين العلوم الفكرية والثقافية التي تنمي العقل وتقويه، فالإنسان ليس آلة يشتغل عقله بها بدون انقطاع ناسيا متطلباته الروحية والجسمية التي بدونها لا يكتمل نموه، ولا يزيد من نشاطه ويقويه، إلا الخيال والآداب والفن.

تعليم الفتيات

كانت الفتيات الصغيرات في المغرب القديم يذهبن إلى دار الفقيهات، ليحفظن الآيات الأولى من القرآن؛ وبعد بلوغهن سن الرشد يعدن إلى

منازلهن لمتابعة الحياة. وفى بداية العشرينات من القرن الماضي أنشأت الإدارة مدرسة ابتدائية عصرية جعلت مقرها بدار اعديل بحي سكني بفاس. وكان التلميذات يتعلمن فيها مبادئ القراءة والكتابة والطبخ والخياطة ثم ينتهي الأمر بحصولهن على الشهادة الابتدائية ليعدن إلى منازلهن.

وفى بداية الثلاثينات صار قدماء تلاميذ المدرسة الثانوية الإدريسية يطالبون بإنشاء ثانوية خاصة بالبنات، على مثال مدرستهم التي يتابعون فيها دراستهم الثانوية إلى مستوى الباكالوريا، لكنهم لقوا معارضة شديدة في بعض الأوساط الشعبية، التي ساندها بعض العلماء بإفتائهم بحرمة ذلك العمل؛ وقد صادف ذلك آذانا صاغية من إدارة الاستعمار، التي ادعت أنها التزمت في عقد الحماية باحترام الإسلام، وعدم مخالفة أحكامه، لكن قدماء الشباب متحمسين لهذا العمل، كونوا لجنة سافرت إلى الرباط، لعرض القضية على الملك محمد الخامس الذي استقبلهم أحسن استقبال، وشجعهم على العمل، وتكلف بالاتصال بكل الدوائر التي يعنيها الأمر، وعلى رأسها المجلس العلمي بفاس. وما إن رجعت اللجنة حتى وجدت الموقف تغير لأن رئيس المجلس العلمي قد وصلته رسالة من الملك تأمرهم بتشجيعهم لقدماء الشباب، والوقوف بجانبهم. وفعلا أنشئت المدرسة رغم الذين يعارضونها.

وبعد سنوات قليلة وقعت حادثة اهتزت لها مدينة فاس اهتزازا عظيما، وجدت فيها العناصر المتخلفة تأييدا لرأيها، وتصديقا له، ذلك أن شابا اعتدى على تلميذة في المدرسة اعتداء جنسيا فظيعا صار بعض الإباء يهددون على إثره بسحب بناتهم من المدرسة، غير أن عمل الإدارة كان سريعا وقبض على الشاب المعتدي الذي عوقب أولا بأشنع أنواع العقاب وأحقرها فقد طُوِّف

في أزقة المدينة ودروبها، وهو راكب على ظهر الحمار ركوبا عكسيا. بحيث ظهره هو الذي يواجه رأس الحمار، ووجهه في الجهة الأخرى؛ وكان يصحبه في هذي المسيرة براح يصيح بأعلى صوته: هذا عقاب من يعتدي على الناس، ويخالف الشريعة، وبعد ذلك حكم عليه بالسجن لمدة سنوات قضاها في سجن فاس ثم اختفى.

وهذا العقاب كان يخصص لكبار المتمردين، والمفسدين، وقطاع الطريق وغيرهم، وذلك لئلا يعرقل النظام العام ويفسد على الناس حياتهم؛ وأغرب مثال على ذلك ما حدث مرة لعريس اتهم زوجته ليلة الزفاف بأنها فقدمت بكارتها من قبل ولما كان أبوها من وجهاء المدينة فقد انتدب في الحين ثلاث عريفات قابلات لفحصها، فأكدن بأنها مازالت بكرا وأن الرجل لم يعرف كيفية معالجتها؛ واجتنابا لفضيحة كبرى ولأقوال الناس والاستهزاء به وبأسرته في كل الأسواق والمجامع، التجأ أبوها إلى القضاء الذي عد هذه الحادثة رميا بالزنا والفحشاء وهو ما كان جد صعب في المجتمع القديم؛ وتبرئة لها ولأسرتها، حكم على العريس الذي لم تقبل اعتذاراته بتطويفه في دروب المدينة وأزقتها وهو يركب الحمار.

قدماء التلاميذ

كان المجتمع المغربي منغلقا على نفسه لا يعرف للتغير ولا للتجديد معنى ولا يترك للمظاهر الحضارية الجديدة فرصة لتصل إليه.

في أواخر القرن التاسع عشر أخذ الملك الحسن الأول يرسل إلى أوربا، باتفاق مع دولها، مجموعة من الشباب لتعلم لغاتها وبعض التقنيات الحديثة في الهندسة والطب والتسيير، ولما عاد بعضهم إلى فاس وهم يلبسون أحيانا

لباسا غير تقليدي، رفضهم الناس واعتبروهم خارجين عن الملة، حتى كانوا لا يكلمونهم ولا يردون عليهم السلام، فتضايق الشباب من ذلك ورفعوا شكواهم إلى الملك الذي غضب غضبا شديدا، وتوعد الذين لا يردون السلام أن يكونوا عبرة ومثالا فيعاقبوا عقابا صارما.

ورغم ذلك فإن عامة الناس كانوا إذا رأوا بعض هؤلاء الشباب مقبلين في الشارع يتراجعون، ليتخفوا في الأزقة والمحال القريبة، وذلك لكي لا يردوا السلام على هؤلاء الشباب إن اقتربوا منهم، وحكى أحد هؤلاء أنه كان مثلا إذا ما وقف عند الجزار، والناس يزدحمون لشراء اللحم الذي كان مادة قليلة حينذاك في الأسواق، فرفع صوته بجملة من اللغة الفرنسية التي كان يعرفها وهي Le ciel est bleu تفرق الجميع وبعدما اشترى ما يريده ذهب لحاله؛ وعند ذلك عاد الذين تفرقوا ليلتفوا حول الدكان من جديد. وقد بقي هذا الفكر موجودا حتى بعد عهد الحماية؛ فقد انشأ الاستعمار مدرسة جديدة تشتغل باللغة الفرنسية، وكون جماعة قليلة في البداية صار الناس ينظرون لتلامذتها بنفس المنطق القديم، ومن جملة ذلك ما حكي عن رجل تقدم إليه شاب يطلب الزواج من ابنته، لكنه رفض لأن الشاب يحلق شعره على الطريقة الأوروبية التي لم تكن معتادة عند الناس ويلبس حذاء أوروبيا كذلك لأنه مخالف للبلغة التقليدية، غير أن جماعة قدماء تلاميذ المدرسة الثانوية الإدريسية قد استطاعوا أن يؤثروا في المجتمع الفاسي تأثيرا قويا، رغم المعارضة الشديدة للبعض، ووقوع الحدث الذي أغضب الناس كثيرا واتخذوه حجة على ما يقولون من أن هذه المدارس تفسد المجتمع والعقول. فقد أشيع أولا بكيفية خفيفة أن أحد الطلبة الذين يدرسون بفرنسا بعد حصوله على البكالوريا وهو من عائلة كبيرة قد اعتنق الديانة المسيحية، ولما

تأكد ذلك وعرفه الناس، تألمت لذلك عائلته، وأقامت الحداد، وتلقى أبوه التعازي في موته، وهذا الطالب كان معروفا وهو مازال شاب يدرس في المدرسة الثانوية بالتزامه الديني وبتشدده في القيام بواجباته الدينية في وقتها، لكن فضوله الفكري الكبير لم يكفيه في تحديه لنظام الكنيسة، فانهار وارتد عن الدين، وللحقيقة فإنه عاش في فرنسا إلى حين مماته، وحكى عنه بعض من كان لهم اتصال به في تلك الأثناء بأنه غريب الأطوار متعدد المواقف والرؤى.

وقد قامت جمعيات قدماء التلاميذ بأدوار مهمة في سبيل تغيير المجتمع وتطوره، وذلك رغم الجمود الذي قوبلوا به في بداية عملهم، ونظرا لمركزهم في المجتمع القديم الذي اضطر إلى احترامهم، والاعتراف بفكرهم الجديد، وبثقافتهم المتطورة، وخصوصا لدورهم الوطني الكبير؛ فقد عرف عنهم أنهم اتصلوا بمحمد بن عبد الكريم الخطابي، وأرسلوا إليه أحد أعضائهم الذي قام بدور كبير في ثورته؛ ثم بعد ذلك في المراكز المتقدمة التي احتلوها في الحركة الوطنية الناشئة آنذاك، وصار لهم حضور في المجتمع اليوم ملحوظ، زيادة على الإعانات التي كانوا يقدمونها لتلامذة المدرسة، من منح وأدوات مدرسية، فقد كانوا يوزعون جوائز مهمة على المتفوقين منهم، وقد توسع هذا الحضور حتى بلغ أوجه سنة 1944، إذ تبنت المطالبة بالاستقلال، فأغلقت السلطات المحلية المدرسة سنة كاملة، ومنعت الجميع، وأصدرت قرارا بمنع الجمعية، واحتجزت ممتلكاتها، وفي طليعتها مكتبتها التي نقلتها إلى مصلحة الاستعلامات السياسية، حيث بقيت محبوسة إلى مطلع الاستقلال، وذلك رغم أن الجمعية صدر باسمها ظهير ملكي قبل ذلك، يعترف بأنها جمعية ذات مصلحة عامة.

أكاديميات العلوم

في المغرب حاليا أكاديمية ثالثة تحمل اسم أكاديمية العلوم، عيّن فيها عدد من رجال الجامعات المتخصصين في مختلف العلوم. وهم يعقدون من آن لآخر ندوات يشاركون فيها ومعهم عدد من الأجانب الذين يستدعون للمشاركة والمناقشة، ويمر هذا في شبه تكتم لا يعلن عنه إلا في التلفزة والإذاعة مرة أو مرتين ويتطلب ذلك لاشك قدرا لا بأس به من ميزانية الدولة، لمجرد أن يقال إن لنا أكاديمية علمية. ونحن نتساءل عن فائدة هذه المؤسسة بالنسبة لبلادنا في حالتها الراهنة.

فكليات العلوم، وعددها يزيد عن العشرات بالمغرب، غاصة بالدارسين والباحثين، الذين هم في أمس الحاجة إلى أن تعطاهم وتضاف إليهم المقادير، التي تجعل تصرف هذه الأكاديمية مما يدل على أن المغرب اليوم في حاجة ماسة إلى من يفيده بترويج العلوم الحديثة، وجعلها في متناول الجميع، باللغة التي يفهمها الجميع، ويستعملها وينطق بها؛ أما البرج العاجي الذي يتحصن فيه من يحمل الشهادات العليا باللغة الأجنبية، ويبقون عندها لا يقومون بأي مجهود ترويجي أو تبشيري بالعلم، فإنما يضيعون أوقاتهم، ومجهوداتهم تضيع من الريع المنتظر منها. وللجامعة دورها الكبير في تدريس العلم، وملاحقة مستجداته؛ وإلى جانب ذلك يمكن أن تكون في بلدنا لأكاديمية العلوم قيمة مضافة نحن في أشد الحاجة إليها، وهي ترويج العلم وتعميمه بين الناس أجمعين، بما تنشره باللغة العربية، وتعمل ليستوطن العلم بلادنا ويسكن معنا بها.

وعندنا في المغرب أكاديمية ثانية هي الأكاديمية الأمازيغية؛ وقد أنشئت لتعتني بهذه اللغة وثقافتها، وكانت لها اختيارات لم ترض الجميع،

لأنها عبرت عن فكر غير مرن ومواقف غير واقعية، وذلك حين اختار أعضاؤها كتابتها بأحرف التيفيناغ التي لم يكن يعرفها أحد، ولم يكتب بها عبر تاريخها الطويل أحد، وبذلك أبعدت اللغة الأمازيغية، وهي اللغة التي ينطق بها عدد غير قليل من المغاربة عن التداول في كل الأوساط بل حبست، وإنما حبستها تلك النخبة، فصارت تتصرف في شؤونها وحدها، وكان الأمر يقتضي عرض هذا المشكل إما على البرلمان الذي يمثل المغاربة أجمعين بغرفتيه، وإما أن يعرض على التصويت العام، لأن المسألة وطنية دستورية، ولا يجوز أن يسند التصرف فيها إلى جماعة قليلة ليس لها الخبرة التامة في الشؤون اللغوية وعلاقتها بالمجتمع.

الأكاديميات

كان المغرب عند الاستقلال في حاجة إلى الأطر العلمية الوسطى والعليا، التي تشارك مشاركة فعالة في عملية التنمية، وتعوض الأطر الأجنبية التي عادت إلى بلدها، ولذلك وقع تشجيع التلاميذ والطلبة الذين يلتحقون بأقسام العلوم الدقيقة، للحاجة الماسة إليهم. أما العلوم الإنسانية فقد سكت عنها، بل صار بعضهم يتساءل عن أهميتها وعن الإفادة التي تحصل منها، وهم لا يعلمون أن تلك الإفادة لا تقل في شيء عن أهمية العلوم الدقيقة، التي ربما لا يتخرج منها سوى تقنيين ذوي آفاق مغلقة مهما ارتفع مستواهم. إلا أنهم يبقون في حاجة دائمة إلى التكوين الذي يفتح ذهنهم، ويوسع آفاقهم، بما يزودهم به من خيال واسع، وفكر ناضج تكون به نظرتهم إلى الحياة أعمق وأشمل وأكمل. وأول من انتبه إلى هذه الظاهرة هم الأمريكيون في منتصف القرن الماضي؛ فبعد أن كان لهم نفس الموقف من العلوم الإنسانية، اكتشفوا فوائدها التكوينية الخاصة بها، فشجعوها حيث

صارت الشركات العالمية الكبرى توظفهم وتستعملهم، مؤمنة بقدرتهم الفكرية الجديدة التي لم تكن معروفة من قبل، ولهذا كانوا يطمحون الى التدريس في الأقسام الثانوية العليا بما هو ضروري، لتوسيع مدارك الدارسين، وإبعادها عن الانغلاق الذي هو من لزوم التخصص الضيق، ومن هنا أصبح يقال إن الدراسات الإنسانية والاكتشافات المتعلقة بها لا تقل أهمية عن الدراسات العلمية، التي أصبحت لا يستطاع الاستغناء عنها وحدد فيها عنصر حي يقويها ويزيد من عطائها. والفرنسيون أنفسهم وصلوا إلى نفس النتائج متأخرين عن الأمريكيين، فأصبحنا نجد كذلك تعليمهم العالي وفي الثانوي لا يقلل من أهمية العلوم الإنسانية والفلسفية، التي يتلقى فيها الطلبة محاضرات وتكوينات، تكون لها أهميتها في الامتحانات الأخيرة. أما عندنا فبرامجنا الجامعية تبقى كما قلت سابقا لا تهتم بهذا التكوين في التخصص الضيق الذي لا ينتج علماء مكتشفين في أغلب الأحيان، وإنما يخرج تقنيين وأساتذة يحفظون الدرس ويحسنون إلقاءه في الغالب العام.

والعلوم الإنسانية ليس لها قواعد تحفظ، ولا معادلات ملزمة، وإنما هي وجهة نظر، وخيال وفكر، هو بالنسبة إلى العلوم نظام يسري في عروق الإنسان، يحرك قواعدها وينشطها، وينبه إلى جوانب، ما كان صاحبها لينتبه إليها، لو لم يكن هذا التكوين يفتح الآفاق، ويوسع مجالات البحث والاكتشاف. من أجله وجب أن تزول الحدود الموجودة بين الكليات في جامعاتنا ليستطيع كل طالب أن يتلقى محاضرات في غير تخصصه الضيق.

وبذلك نتفادى تخريج علماء ذوي أرواح ميكانيكية تقنية، لا علماء متشبعين بالمعرفة الإنسانية، إلى جانب معرفتهم التخصصية.

ولكل بلاد العالم أكاديميات علمية رفيعة المستوى، يعين بها المثقفون الكبار الذين يسهرون على لغتها، ويعملون على تنميتها لتسيير التطور والتغيير الذي يقع في المجتمع، وبذلك تكون الهيئة الساهرة على وجوده، الحاضنة له، وهو يخوض غمار التقلبات والتغيرات التي لا تنقطع، وبذلك تضمن وجوده واستمراره في كل الحالات. وقد أنشئت أكاديمية المملكة المغربية في الفترة الأخيرة من القرن الماضي، فعين بها عدد من رجال العلم معروفين، وأضيف لهم عدد آخر من الأجانب الذين لهم نفس التوجه والمستوى. وقد قامت هذه الأكاديمية خلال مواسم عديدة بندوات ومناقشات، شاركت فيها أعداد غير قليلة من أهل العلم والمعرفة، وكانت نتائج هذه الجلسات تنشر في مجلاتها وفي كتب خاصة، إلا أنها لم تكن بالعدد اللازم ليقرأها ويستفيد منها الجميع. وقد أصابها في السنين الأخيرة نوع من الركود، بحيث إن الذين يتوفون من أعضائها لا يعوضون بآخرين جدد يقومون مقامهم، وبذلك انحصر مفعولها، بينما كنا نرجو أن يتسع ويشمل المجتمع كله، لترويج العلوم والمعارف، والفكر الرفيع، الذي هو في حاجة ماسة إليه.

الترجمة في الجامعة

قضينا في كلية الآداب بفاس ثلاثين سنة كاملة، لم ننقطع عن التدريب والاتصال المباشر بالطلبة، رغم اشتغالنا المتصل بالإدارة ومشاكلها الخاصة. وقد كنا دائما نفضل تدريس الترجمة مع مواد أخرى، كعلمي الألسنية العامة والمعاجم. وإذا كان غيرنا من الأساتذة يبقون منحصرين في مادة واحدة أو مادتين فإننا كنا نجد المجال الواسع للترجمة، لتبعدنا عن الرتابة وضيق الأفق، وكانت النصوص التي نختارها للترجمة تؤخذ من مواد

عديدة كاللغويات والتاريخ والجغرافيا والفلسفة وغيرها مما يمكننا دائما من ارتياد هذه الحقول المعرفية المختلفة، التي تجعلنا نبقى في اتصال مع مجالات ثقافية عديدة، تتفتح لها أنفسنا وأنفس طلبتنا. وقد كنا دائما نأسف لعدم وجود شعبة خاصة بهذه المادة التي تتطلبها الحالة الثقافية، ويستلزمها التطور الفكري عندنا،حتى لا يبقى كلنا حبيس مادته المحصورة، لا يحيد عنها. وقد قلنا إن الكليات كانت تمثل مصانع منغلقة على نفسها لا يزورها ولا يتعلم فيها ولا يتخرج منها إلا من هو اختصاصي في مادتها، بينما العلم الحديث يفر من الانكماش والانطواء على النفس، لأصحاب اللغة العربية عالمهم الخاص، وكذلك للمتخصصين في كل اللغات عوالمهم المغلقة التي لا يبرحونها، ونعتقد أن لغتنا العربية لا تستفيد من غيرها الاستفادة المرجوة، لأن معرفة طلبة الدراسات اللغوية الأخرى لا يتلقون القدر الكافي من لغتهم العربية إليها أو منها، بحسب الحاجة، وكان أملنا دائما أن تكون لنا شعب مزدوجة اللغة بكيفية متكافئة، ليقوم طلبتها بمهمة النقل، فتزدهر ثقافة جديدة متفتحة بالمغرب، وتغنى لغتنا بما ينقل إليها أو منها، وذلك وإذا ما أخذنا في الاعتبار ما نشأنا عليه، وتلقيناه في دراستنا الثانوية التي ساعدتنا على التغلب على مشاكل كثيرة، مما مكننا من اجتياز امتحانات الترجمة التي كنا نؤديها بمعهد الدراسات العليا بالرباط، فقد كانت شهادة الترجمة هذه على ثلاثة مستويات. المستوى الأول حصلنا عليه عند المستوى الإعدادي، وبعده حصلنا على المستوى الثاني الذي ضم إلى النقل من العربية وإليها دروسا في الإسلاميات العامة باللغة الفرنسية، مكنتنا في وقتها من التعبير باللغة الأجنبية على ما كنا نعرفه باللغة العربية، ولم يكن ذلك سهلا، ثم كان المستوى الثالث وهو الدبلوم الذي أكد ووثق

معارفنا باللغتين، وأوجد بينها جسورا وثيقة، ونأسف اليوم لعدم وجود مثل هذه الشهادات التي أوقف العمل بها سنوات بعد الاستقلال، بدعوى أنها شهادات نوع من التكوين لم تعد الحاجة ماسة إليه، واليوم ونحن في عصر العولمة والحوار المتواصل بين الشعوب والحضارات والثقافات نري لزاما أن يكون لنا مثل هذه الدراسات المزدوجة، لنعرف بأنفسنا بلغة أخرى، ويتعرف علينا الناس بما ننقله لهم من شؤون الفكر والثقافة كما هي عندنا.

فلم يعد منا مناسبا لمغرب القرن الحادي والعشرين هذا الفصام الثقافي الذي نعرفه، والذي يفرق بين عناصر المجتمع النخبوي التي لا تستطيع التواصل في بينها، فتتكون بذلك جزر ثقافية متفرقة يفصل بينها تباعد ثقافتها، وجهلها بطرائق التواصل الحديثة، مما يؤثر على الفكر، ويبقيه في طور عدم النجاعة والتأثير كما يرجى له.

التقييم العلمي

كل العاملين في ميدان التعليم يقومون بعملهم حسب استطاعتهم. وتبدأ السنة الجامعية وتمر، بتوقفاتها واضطراباتها، ثم تنتهي بمنتجات تجتاز كما شاء الله، وتوزع الشهادات، ويتوقف الجميع في انتظار سنة مقبلة، ستمر كما مرت السنة الماضية، ولا أحد يفكر في تقييم العمل الذي كان محاولة لمعرفة النقص، ودرجة الإنجاز، والحصيلة العلمية، والجامعية، والتكوينية، والإنسانية العامة؛ فلا يكتب عن كل هذا تقرير ينظر فيه الجميع لمعرفة ما تحقق، وما ينتظر إنجازه لإصلاح النقائص والتلافي في المستقبل.

ونحن نعرف مثلا التقارير التي ترفعها كل هيئة في فرنسا عن حصيلة عملها، وما يلزم إصلاحه استعدادا للسنوات المقبلة، ولهذا نتساءل، لماذا لا يطالب أساتذتنا بملء استمارات سنوية يذكرون فيها عملهم، وما حققوه في مادتهم، ويقدمون اقتراحاتهم وما يرونه من عمل واجب تعديلا للحالات التي يكونون غير راضين عنها. وهذه الاستمارات تجمع وتقدم للمفتشين الذين ينظرون فيها قبل إصدار تقريرهم العام عن السنة كلها والمواد كلها. ومثال ذلك يكون في التعليم العالي حيث يتقبل رؤساء الشعب التقارير التي يكتبها الأساتذة، ويكتبون عن كل تخصص على حدة، ثم تجمع هذه التقارير على مستوى الكليات والمعاهد العليا، وبواسطتها يكتب أولا التقرير العام للجامعة، ثم تقرير الوزارة الذي يتناول كل مناخ التعليم، ويقول كلمته في كل شاذة وفاذة كانت خلال السنة التي يعطى رأيه النهائي في حصيلتها ويقدم مقترحاته. وبهذا تنتظم الأمور خير انتظام، وتسير دائما إلى ما هو أحسن ولا تبقى اعتباطية لا تعرف حصيلتها المرحلية، لأنها تنبه إلى نقائصها وتعمل على إصلاحها فلا تتكرر.

إنه التسيير العقلاني لشؤون التعليم في كل مراحله، الذي يتابع الشباب وهم يدرسون ويتكونون، استعدادا للمستقبل، وحرصا على أن يكون دائما أفضل مما مضى وأحسن.

الجامعة المغربية

أنشئت الجامعة المغربية بالرباط في السنين الأولى من الاستقلال، وأنشئ كذلك بفاس فرع لكلية الحقوق، وآخر لكلية الآداب كنا على رأسه منذ افتتاحه سنة ستين وتسعمائة وألف، وقد كان عدد طلبته في البداية لا يتعدى بضعة أفراد يتكاثرون حتى أصبحوا بالآلاف بعد مرور بضع سنوات،

وكان تسعون في المئة أو أكثر من هؤلاء الطلبة يتقاضون منحا دراسية، وقد اتخذ مبكرا قرار بتحويل كل الدراسات العربية إلى فاس، وبقاء الشعوب الأخرى مستمرة بالعمل في الرباط وفي بداية السبعينات أخذنا ننفصل شيئا فشيئا عن الرباط. بحيث كانت لنا ميزانية خاصة تعطانا مباشرة من وزارة المالية. وهنا تساءلنا: لماذا لا تكون بفاس كلية كاملة بجميع شعبها؟ فوجدنا الموافقة على ذلك، وذهبنا إلى المشرق العربي لزيارة جامعاته، قصد توظيف الأساتذة الجامعيين. فزرنا عدة مرات جامعة القاهرة ودمشق وبغداد والسودان، واستقدمنا العديد من الأساتذة الكافين لسد كل الفراغات العلمية الشاغرة حينذاك، وأنشأنا شعبا جديدة للتاريخ والجغرافيا، بعد شعبة اللغة العربية التي اكتملت ونمت، وأعطت للتعليم الثانوي كل ما يطلبه من الأساتذة وما أكثرهم، بل اجتهدنا في فتح شعبتين جديدتين هما شعبة الدراسات الإسلامية وشعبة الفلسفة.

أما ما يخص شعبة الدراسات الإسلامية فقد كان الأمر كما يلي: تقدم إلي وأنا عميد هذه الكلية مجموعة من الطلبة يريدون التخصص في الثقافة الإسلامية، فأخبرتهم بأنه ليس لنا إمكانية لذلك، لعدم وجود أساتذة متخصصين في الموضوع، فانتقلوا إلى فرنسا، وبعد مرور سنتين عادوا يحملون هذه الشهادات بعدما درسوا على مستشرقين، كانوا لا يرفضون الإشراف على الأطروحات كيف ما كان نوعها بدون حصر ولا تأخر. هناك تساءلت: لماذا لا نحدث بالجامعة المغربية شعبة جديدة؟ وقد أحدثت على مثال الجامعة الفرنسية التي تستبعد الدراسات الدينية المحظة منذ ثورة فرنسا المعروفة. وقد كلمت في هذا الشأن مسؤولين من الوزارة، لكنهم أظهروا تهربا، لأنهم لم يعتادوا هذا الأمر، فكتبت تقريرا مفصلا في الموضوع، حملته

بنفسي إلى مستشار الملك المرحوم أحمد بن سودة الذي اطلع عليه، وأخبرني بأنه سيقدمه إلى الملك الحسن الثاني، وسيسانده كثيرا. ولم يمض وقت طويل حتى نودي علي من وزارة العليم العالي،وطلب مني أن أقدم تصوري العام لهذه الشعبة الجديدة، فقدمته في أسرع وقت، وأخذنا نناقشه في الوزارة، بعدما التحق بنا الأستاذ محمد بن البشير الذي كان يعمل آنذاك بكلية الرباط، ولما أنهينا عملنا قدمناه للوزير عز الدين العراقي، الذي أخبرنا ذات يوم بأنه سيحضر اجتماع وزاريا، وأنه وضع هذه الشعبة في جدول أعماله، وقال زودوني بالحجج اللازمة إن كانت هناك معارضة لإحداث هذه الشعبة. فبماذا أدافع عنها؟ ولما كنا نعرف الجهة المعارضة فقد قلنا له أن الثقافة الإسلامية حق في أن تدخل الجامعة العصرية الجديدة كباقي المواد، وألا تبقى مبعدة عنها، كما أن هذه الشعبة لا تنشأ لتخريج القضاة والعلماء والمفتين، وإنما لتكوين جيل جديد من المثقفين، يعرف ويدرس تاريخ الإسلام من جوانبه الفكرية والثقافية والحضارية. وكان فرحنا عظيما في ذلك اليوم حينما عاد فأخبرنا بالموافقة التامة على إحداثها. أما شعبة الفلسفة فقد أحدثناها بفاس وكان الإقبال عليها عظيما، وذات سنة طلب مني الكاتب العام للوزارة أن نغلق تسجيل الطلبة بها، لما كان يشاع عنها من الأفكار المشوهة التي كان يروجها أعداء الفكر الحر والمتشددون، الذين كانوا يرمونها بأنها السبب في كل ما يحدثه الطلبة من شغب. وقد استشرنا حول هذا الأمر بإغلاقها كل المسؤولين عندنا، فنصحوا بعدم الامتثال له، لأن الطلبة مستعدون لجعل الكلية إذا ما أغلقت شعبتهم تعيش في الجحيم.

وبعد أيام أعاد مسؤول الوزارة تساؤله عن عدم إغلاق التسجيل، فأجبناه بأن عدد الطلبة يفوق الألفين وبأننا ننتظر رسالة من الوزارة بذلك، لأننا لا

نستطيع التصرف المنفرد في هذا، واتخاذ قرار من هذا الحجم بمفردنا. وانتهت القضية عند هذا الحد، إذ سكتت الوزارة ولم تعد تطالبنا بشيء، وبقيت الشعبة تشتغل بدون انقطاع، وتخرجت منها جماعات من ذوي الثقافة العصرية المتحررة.

الجامعة

أنشئت الجامعة المغربية على مثال الجامعات الفرنسية التي استبعدت الدراسات الدينية منذ زمن طويل؛ وقد كنا في كلية الآداب بفاس، نجاهد لتقديم تعليم جامعي متكامل في العلوم الإنسانية ما أمكن. وفي بداية السبعينات من القرن الماضي يأتي إلى مكتبي بعض الطلبة المتخرجين الذين يريدون متابعة بحوثهم في بعض الدراسات الإسلامية، لكني كنت أعتذر لهم بعدم وجود متخصصين في الموضوع، فيذهبون إلى باريس. وبعد مرور بضع سنوات يعودون وهم يحملون شهادات في هذه الدراسات، ناقشوها مع بعض المستشرقين الذين يشرفون على كل الموضوعات التي تقترح عليهم بدون حصر، وهنا تساءلت: لماذا لا نحدث شعبة للدراسات الإسلامية للآداب، لا يتخرج منها فقهاء، ولكن متفوقون يتخصصون في الدراسات القريبة من الإسلام. فتقدمت بطلب إلى الوزارة في ذلك، غير أن المسؤولين الذين لم تكن لهم دراية في الموضوع خافوا، وأعلنوا أن ذلك ليس من اختصاصهم. فكتبت تقريرا وافيا في الموضوع أكدت فيه مرة أخرى أن المقصود علمي ثقافي، وأعطيت المثال بالجامعات الفرنسية التي لا تدرس الدين، ولكنها تنظر في ثقافته وإبداعاته، وكل الموضوعات الأدبية والفكرية التي تحيط به. ثم زرت مستشار الملك السيد أحمد بن سودة، وحدثته عن الموضوع وأعطيته التقرير الذي وعدني بأن يعرضه على الملك آنذاك وهو المرحوم الحسن الثاني. وبعد

مدة قليلة أخبرني بأن جلالة الملك اطلع عليه واستحسنه وقدر فوائده الجمة؛ وقد وافق هذا قيام إضرابات بجامعتنا بفاس، قالت التقارير عنها إن طلبة كلية العلوم قد أعلنوا شعارات مسيئة إلى الإسلام، لكنه تبين فما بعد أن هذه ادعاءات كاذبة مضللة، كتبها معارضوهم ليسيؤوا إليهم وإلى سمعتهم، وليحرضوا الإدارة عليهم. وبعد قليل اتصل بي كاتب الدولة في التعليم العالي وأخبرني بأن الموافقة الملكية على اقتراحاتي قد تمت وأن علي أن أحضر للوزارة لتحضير الوثائق اللازمة لذلك، من نصوص إنشائية، وبرامج ومقررات. وفعلا تم ذلك بحضور كبير للإجابة عن سؤال وهو: ماذا سيفعل المتخرجون من هذا القسم؟ وبماذا سيشتغلون؟ وكانت المقررات التى أعددتها تشتمل على تكوين واسع في اللغة العربية، وتكوين آخر في العلوم الإسلامية والفكر الإسلامي، وحينما أعلن عن هذا رسميا قامت قيامة الجامعيين الآخرين تعلن أن هذا ليس من اختصاص الجامعة كما اعترضت عليه جهات أخرى من العلماء في الجهات الأخرى ترى أن هذا من اختصاصها ولا يجوز لغيرها أن يدرسه ولا أن يشتغل به. غير أننا واجهنا هذه الجملة بأخرى قوية مثلها، تعلن من ناحية أن تعليمها من ثقافتنا وتاريخنا وفكرنا.

كما نبهنا الجانب الآخر أن الموضوعات المقترحة لتدريس شعبة جديدة لم تنل حضها من العناية في تعليمهم، بل كانت مهمشة، تكاد تكون منسية في برامجه. وعند مفتتح السنة الدراسية التالية،أقبل عدد لا يستهان به من الطلبة على الشعبة الجديدة، لأنها تملأ فراغا كبيرا، وتستجيب لرغبات قوية بعدما ظلت في ميدان المنسي غير المرغوب فيه. والحقيقة أننا بهذا العمل قمنا بحركة إسلامية لطيفة ومرنة في وجه المتعصبين الذين لا يعرفون

الإسلام على حقيقته، لأنهم لا يرتادونه في كل جهاته، ولا يحيطون بكل مصادره، وإنما يقابلون كل جديد بالرفض.

وقد دفعنا إلى هذا ما كنا نلاحظه مما ينشر عن القرآن الكريم وعن الإسلام وحضارته وثقافته، وللصورة المشوهة التي تعشش في بعض العقول والأذهان، مما يجعل اللقاء مع الديانات والحضارات والثقافات الأخرى تصادميا أحيانا.

فهناك أصوات منفردة ترتفع لتقول إن الإسلام دين الاستسلام والتواكل، والتخلف والمذهبية الضيقة، وأخرى تعتبره دينا متطرفا عنيفا متعصبا، ومن ثم صار من اللازم العمل على نشر الصورة الصحيحة عن الإسلام، وتقديمه إلى منتقديه على حقيقتة مبرأ من الشوائب والتشويه الذي يلحقونه به، نتيجة جهلهم أو تجاهلهم المتعمد لعقيدته، وتعاليمه ودعوته الإنسانية، ولكل المظاهر المشرقة التي يدعو إليها، وفي طليعتها قانون المرونة والتيسير الذي أكده في غير ما آية، داعيا باستمرار إلى الاعتدال، وترك الغلو والتشدد، والشطط والتعنت، ليبقى الدين قائما على الرفق، متناسبا مع طاقة الإنسان، متلائما مع نشاطه وفعاليته في حياته.

إن بعض المواقف القريبة منا تعتبره ظاهرة يجب البحث عن أصولها وعللها الظاهرة والباطنة؛ والحق أن لها أسبابا عديدة فمنها في نظرنا اليوم التراكمات التاريخية، والمواقف القديمة التي ترسبت في النفوس واستقوت فيها لمدة طويلة، ثم صارت تطفو على السطح وتعود إلى الظهور اليوم بسهولة، وأن الغربيين بعدما أبعدوا الدين من حياتهم اليومية لا يفهمون اليوم لماذا يتشبث المسلمون بالدين، ويتعصبون له بقوة وحماس. يضاف إلى هذا حرية

الصحافة والنشر التي لا تعرف حدودا وانضباطا ولا تحترم بعض المقدسات في بلادهم.

تشجيع بعض الأكاذيب، للوصول إلى تحقيق المصالح الكبرى من أرباح وفوائد سهلة وفيرة، لذلك يتهموننا بينما هم أكثر تعصبا وعنفا في كثير من الأحيان، وبينما نقدم نحن للأسف مثالا غير مرضي، بمطاحناتنا ومشاحناتنا وتفتت صفوفنا، وهو المثال الذي لا يتحدى ولا يشرف. ونؤكد أننا بمعرفتنا وإتقاننا في مناهج البحث العلمي الحديث، وضوابط وقواعد التواصل مع الآخرين، في فكرهم وعلمهم، ومنطقهم وأساليبهم في العمل سنحقق تحسنا كبيرا في معاملاتنا وتفاهمنا معهم، ولا يبقى عدد كبير من الباحثين الغربيين يعتبرون الثقافة العربية متجاوزة مستهلكة.

فهي عندهم مادة علمية للقراءة والمعرفة فقط، لا واقع متطور. ولضرورة تعاملهم مع الفكر العربي الاعتراف به كفكر ساهم في الحضارة وإغناء الفكر العالمي، كما أنهم لا يعترفون به كمكون، ولا يعترفون به أيضا كفكر مشارك في تأسيس الحضارة العقلانية الحديثة، مدعين انه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون لنا نظام بديل يعترف بحقوق الإنسان ويدعو إلى السلام، والتحاور بين الشعوب والأنظمة الديمقراطية، وحقوق المرأة، وكل الحريات الجديدة. ونقول بكل هدوء واتزان بعدم صحة ما تدعيه المركزية الأوروبية، وبعدم صحة كل ما تدعيه بأن الحقيقة موقوفة عليهم وتسكن بلدهم وتاريخهم وتوجيهاتهم .

والاستشراق هو في كثير من مظاهره مرتبط بسياسة يلجأ إليها الأوروبيون لأخذ الفتاوى والنصح والتوجيه، باعتبار أن شؤون العالم العربي والإسلامي لها علاقة بمصالح الغرب، وأجوبته على الأسئلة الموضوعة دائما في

إطار الفهم الغربي؛ فليس هناك في الحقيقة محاولة جادة لفهم العالم غير العربي كما هو في ذاته وبنيته الخاصة، ولذلك فمعرفتهم تنطلق فقط من الذات الأوروبية التي تنقل القضايا والفهم إلى محيط آخر مغاير لمكانها الطبيعي، وحكمهم على العالم الأجنبي عنهم ينطلق مما يسكنهم من خصوصيات ثقافية وعقلية، وهو ما يجهلون أو يتجاهلون أنه يتحكم في نظرياتهم وأحكامهم، ويوجهها ويقيدها فيما يعتقدون أن تحليلاتهم مصيبة وآراءهم محقة.

والمفتون الموجهون محكومون في رؤاهم وفي نظرتهم إلى العالم بقواعد فكرية خاضعة لعقليتهم ومنطقهم وأساليبهم، بينما قراءة تراثنا قضية تتطلب آن تكون قائمة على فهم خصوصيات هذا التراث في بنيته الداخلية؛ فمقاربة الثقافة من خارجها تتعارض نتائجها تماما مع من يراها من داخلها؛ فالغربيون ينخرطون أحيانا في إيديولوجيات مختلفة، ويتعاملون معنا أحيانا لإبقاء عالمنا تحت سلطتهم الروحية، لجعله في منأى عن أجواء الحداثة الحقيقية، ولذلك فنحن نرى ضرورة اللجوء إلى طرائق جدية في التعامل معهم، وفي طليعتها حوار الثقافات والحضارات، لإزالة كل سوء تفاهم وبهدف محو كل الصدام بيننا وبينهم في المستقبل، وذلك بتقديم أنفسنا في خطاب خاص، تشارك فيه كل الفعاليات العلمية والفكرية والثقافية والأدبية والفنية عندنا.

ويجب العمل على إدخال المعرفة الخاصة بنا في ثقافة الإنسانية العامة، لتصبح جزءا منها في برامج التعليم العام عند الآخرين ومقرراتهم، فلا تبقى منسية مهملة مسكوتا عنها، ثم العمل على ترجمة مضمون تراثنا وأدبنا

وفكرنا إلى اللغات الأجنبية، والسهر على نشرها في أوسع نطاق، لتتداول وتعرف؛ ونعتبر أن للترجمة دورا مهما فعالا في ميدان مواجهة هذه التحديات.

فهو يشمل نقل تراثنا إلى اللغات الأجنبية الوازنة، لوضعه بين أيادي القراء الأجانب، قصد التعريف بحضارتنا وثقافتنا تعريفا مباشرا، وبذلك نستغل المناسبة لتحصين صورتنا لدى الآخرين بتقديمها تقديما عصريا يسهل تلقيها لديهم وتقبلهم لها، قصد تجاوز التحديات المطروحة وتجاوز تأثيرها على الناس الذين سيقتنعون بها لقوتها ونجاعة منطقها لديهم.

الطلبة

ولم يمر وقت طويل على إنشاء فرع كلية الآداب بفاس، حتى تهافت عليها الطلبة من كل أنحاء المغرب، نظرا لعدة أسباب: أهمها اتساع بقعته التي كان يمكنها أن تستقبل الآلاف منهم، ووجود حي جامعي بقربه مما كان يسهل عليهم الحياة.

غير أن ما لاحظته منذ وقت باكر هو ميلهم إلى الاحتجاج الدائم، والتوقف المسترسل عن الدراسة مهما كانت الأسباب. رغم أننا كنا نجتهد في توفير كل الظروف الملائمة لهم ليتابعوا دراستهم في سلام وهناء. وقد كانت الحالة تسوء أحيانا إلى درجة معقدة، لم نكن نفهم دوافعها. فبعد صدور القانون الجامعي الذي كان يبيح لهم المشاركة في تسيير الكلية، أعلنوا رفض هذا القانون لأن كل طائفة منهم كانت تدعي أنها الممثلة الوحيدة للطلبة، ولذلك يحق لها أن تشرف على انتخاب ممثليهم دون مشاركة الإدارة، التي كان عليها حسب نظرهم ألا تقبل إلا لائحة واحدة للمرشحين، وذلك ما كان يحدث شغبا كبيرا بينهم، يؤدي أحيانا إلى صراع

قوي، قد يصل إلى إسالة الدماء؛ ويظهر أن الأمر مازال هكذا إلى اليوم، كل طائفة تدعي التمثيلية، وتنكر وجود الآخرين مهما كانت قوتهم ووجودهم الكبير الظاهر للعيان، والغريب أن الصحافة كانت دائما تهمل أمور الجامعة ولا تتحدث عنها إلا في القليل النادر. وقد كنا اقترحنا إنشاء مؤسسة وطنية ومحلية للنظر في هذا الأمر العويص، ينضم إليها علماء الاجتماع وعلماء النفس، وغيرهم من الخبراء، علهم يصلون إلى إيجاد حل لظاهرة الاحتجاجات المسترسلة بدون مبرر في نظرنا، وللوصول إلى فهم عميق لها، يجعل لها حدا ويتيح للطلبة أن يتابعوا دراستهم في أمن وسلام. لكن أحدا لم يلتفت إلى هذا العرض ولم يعره اهتماما حتى اليوم، ومازالت الأحزاب والنقابات والصحافة في غيبة عن ساحة الجامعة، وتكاد لا تكترث لما يقع بها من توقف عن الدراسة، وأعمال مخلة بالنظام. أما الأساتذة فموقفهم عامة لا يختلف عن الجهات التي أشرنا إليها، فما إن ترتفع الأصوات والاحتجاج حتى يتوقفوا هم أيضا وينصرفوا إلى حال سبيلهم، وكأن الأمر لا يعنيهم في شيء، تاركين المجال واسعا للمجابهات والإضرابات والتوقفات عن الدراسة التي قد تسترسل، و تكاد تضيع معها السنة الدراسية.

جامعة القرويين ماضيا ومستقبلا

المستقبل أمره عظيم، وشأنه كبير، لأنه هو مما لاشك فيه مطلقا سيكون مؤسسا ومبنيا على التحولات والتغيرات التي لم تعرف الإنسانية لها نظيرا في الماضي.

ونحن الشعوب النامية سنعرف في مستقبلنا القريب والبعيد إشكالات وصعوبات وتحديات إن لم نكون أنفسنا تكوينا جديدا يستطيع مجابهة هذه

التغيرات التي ستتجاوز القديم لتنفتح على الجديد الذي لم نعهده من قبل. وإن المدرسة إن لم تأخذ مكانها الحقيقي في مجتمعنا المتقلب فإنها لن تستطيع مجابهة التغيرات الجديدة، والصمود أمام تحدياتها القوية العميقة التي لن تبقي ولن تذر.

إن الأجيال العديدة التي تتكون الآن، والتي سيكون منها رجال المستقبل ملزمة بأن يكون لها الفكر الخلاق، الذي يستطيع التعامل مع الحالات الجديدة التي تطرأ وتحدث كل يوم، ولن يكون مستقبلنا بأيدينا إذا ما بقينا نتعامل مع الأحداث بفكر ماضوي متجه إلى الوراء، قبل أن يتجابه مع صعوبات المستقبل، والمستقبل الذي نقصده هو الذي يبدأ في القريب، وليس له حدود في المستقبل يتمكن من معرفتها الإنسان كيف ما كان.

لقد حاول علماء المستقبليات انطلاقا من بعض مكونات العصر الحاضر أن يحددوا بعض صفات هذا المستقبل؛ ولكن أنا لهم ذلك؟ إن مستقبل الإنسانية سيكون بالطبع كماضيها مليئا بالحروب والأحزان، واعتداء الأقوياء على الضعفاء، وسيلجأ الإنسان لكل الوسائل المتاحة للدفاع عن نفسه، بما في ذلك الأسلحة المدمرة الكبرى، التي هي من نتائج المعرفة والعلم، ومن إرادة القوى الكبرى ستصير في غير الطريق المستقيم. وهذه الأسلحة المدمرة خطيرة على وجود الإنسانية، فإذا كانت اليوم بيد بعض الشعوب بدون بعض يد الآخر، وأثمانها مرتفعة للغاية، لا يتحصل عليها الا الشعوب ذات الإمكانيات العظيمة، فإنها لن تبقى كذلك غدا، لأن معرفة العلوم الموصلة إليها اليوم ستشيع لا محالة، وتصبح مشاعة يستطيع الكل أن يصل إليها ويستعملها، مدافعا عن نفسه بها، لأن أثمانها ستصبح رخيصة ومعرفتها متيسرة.

وإني أرى هذه الإنسانية وقد ضاق بها مقامنا في أرضنا، بعدما ما كثر علمها وتزايدت معرفتها وهي تستعد لمغادرة كوكبنا باحثة عن ملاجئ فضائية وبعيدا عن الأرض التي تروعها وبحروبها وشمسها التي أخفت نورها وتغيرت حرارتها وبحورها التي أصبحت تجف مياهها.

إني أراها وقد أعدت لذلك مراكب فضائية، علوها كعلو الجبال يحشر فيها البيض والسود رجالا ونساء وأطفالا، ومعهم حيواناتهم الكبيرة والصغيرة، وحشراتهم التي لا تكاد تحصى، إنها سفينة فضائية كسفينة نوح الأولى التي مكنت الإنسانية من النجاة من الغرق والاستمرار في العبث.

هذه المراكب ستبحر في الفضاء، وتبحث عن ملاجئ ملائمة لعيشها واستمرارها خارج الأرض، وبعيدا عن الشمس في ناحية أخرى من نواحي الكون الفسيح العريض.

يؤرخ العلم الحديث بداية الكون بأربعة عشر مليار سنة، منذ الانفجار الأعظم الذي استمر معه هذا الكون في اتساع وتباعد نشهده إلى اليوم؛ وكانت أرضنا مذ أربعة مليارات من السنين وتطورت إلى آن جاء الإنسان، فسكنها وعمرها وأنشأ حضارات وثقافات وديانات مختلفة، لكن عقله الجبار وأنانيته وبعض مظاهر السيطرة التي امتاز بها، كل ذلك قاده إلى حروب أسالت دمائه في جميع البقاع، وإلى اختراع أسحلة فتاكة من فعل ذلك، استعملها في خدمة روح السيطرة التي كانت لديه، فعادت عليه بالويلات التي أفسدت عليه حياته بعد ما كان يريد إصلاحها، وأثرت كثيرا في أرضه الجميلة التي سكنها وسعد زمنا ما في الاستقرار فيها، لكن (قنابله) وأسلحته المدمرة فجرت البراكين، وأهدرت المياه، وأحرقت كل شيء، مما دفعه إلى التفكير بمغادرة كوكبه الجميل بحثا له عن مقر جديد في الكون.

شعبة الفلسفة

بقيت دراسة الفلسفة في المغرب مقصورة على شعبة الرباط؛ وحينما عزمنا في بداية سبعينات القرن الماضي على توسيع كلية الآداب بفاس، أنشأنا بها كل الشعب، وفي طليعتها شعبة الفلسفة التي كان يدرس بها جماعة من الأساتذة الشباب المغاربة، وأضفنا إليهم جماعة كبيرة من إخواننا العرب الذين أتينا بهم من مختلف الجامعات المصرية والسورية والعراقية، ولذلك كان مستواها مرتفعا وتكوينها جد متين، وفي بداية إحدى السنوات، وأنا عميد لكلية فاس هاتفني الكاتب العام للوزارة متسائلا عن هذه الشعبة، وذلك بعد وقوع حوادث بكلية العلوم قيل إنه لو كان فيها الإسلام لما وقعت، وذلك بمشاركة طالبة هذه الشعبة وكطلبة فيها. وقد أخبرني المسؤول الكبير في الوزارة بأن الوزير يريد إغلاقها، كما طلب مني العمل على ذلك. وبعد الاستخبار وجدت أن عدد طلبتها يقرب من الألفين ولم يكن من رأيي إغلاقها لأنها شعبة الثقافة الجديدة والتفكير بامتياز.

وبعد ثلاثة أيام عاد المسؤول الوزاري الكبير يسألني عما تم في الأمر، وكان ينتظر أن أخبره بتنفيذ الأمر الصادر في حقها؛ لكنني أخبرته بأنني أنتظر الأمر الوزاري بذلك، لأن إسم الشعبة وارد في الجريدة الرسمية، وبأنني لا أنصح بإغلقها لأن الحياة في الكلية ستتحول إلى جحيم، لاعتبارات أهمها عدد الطلبة الكبير بها؛ وفي الأخير لم أغلق الشعبة للإيمان بأهمية ما يدرس بها، ولأن مفهوم الفلسفة اليوم هو غيره في القرون الماضية حينما هاجم بعد المتقدمين هذه الدراسة، واضطهدوها وهمشوها في المجتمع العربي الإسلامي، بينما هي اليوم مادة تفتح الفكر وعدم انغلاقه، وما ترمى به من ضلالات لم يعد له مبرر للوجود. وها هي تؤدي رسالتها إلى اليوم، تتخرج منها كل سنة

جماعات من ذوي التفكير الحر والعقل المتجدد السلمي، ومن ذوي الثقافة الحية التي تعرف ماضيها وحاضرها، وتستعد لبناء المستقبل الفكري الذي تهفو إليه بلادنا، وتجتهد لإنجاز الاجتهاد اللائق.

الأسر العالمة

ـــ المدينة الجديدة بفاس

ـــ الانغلاق المغربي القديم

الأسر العالمـــة

كان أهل فاس يرسلون أبناءهم الصغار إلى المسيد لتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم، وحينما يبلغ الصغار سن الرشد كانت أكثرية منهم تخرج إلى الحياة للاشتغال وللصناعة أو التجارة بينما طائفة منهم تتابع دراستها بالقرويين التي كان طلبتها يأتون من المدينة أو من الخارج. وقد امتازت فاس بكثرة مدارسها التي توجد في كل جنابتها والتي يسكنها الطلبة الآفاقيون الذين يحضرون لمتابعة دراستهم، فتعطى لهم السكنى مجانا كما يعطى لهم الخبز اليومي وقليل من الزيت، كما كان ذلك من قبل. وهؤلاء الطلبة الآفاقيون كان بعضهم حينما يتم دراسته يعود إلى بلده، وبعضهم الأخر يبقون في فاس ويعيشون فيها دائما.

عرفت بعض الأسر الفاسية بأنها أسر عالمة يرث فيها الأبناء العلم عن آبائهم وأجدادهم، كأسر بن سودة والفاسيين الفهريين وابن الحاج السلمي والكتانيين والوزانيين والعراقيين الذين قيل إن منصب القاضي يحجز لأحدهم وهو ما زال في صلب أبيه، وكان للأسر الأخرى حضور علمي، لكنه غير متوارث كالأسر التي ذكرنا. وكانت للعلماء على العموم مكانة متميزة في النفوس يلتجئ إليهم الناس في كل الأوقات للسؤال ولمعرفة أحكام الذين. وإذا كانت الدروس في جامع القرويين خاصة بالطلبة، فإن كل مساجد المدينة كانت تلقى بها دروس يحضرها عامة الناس خصوصا بعد صلاة الصبح وبين صلاة المغرب والعشاء عندما تغلق الأسواق أبوابها.

المدينة الجديدة بفاس

كما أن الحماية قررت نقل العاصمة من فاس إلى الرباط، بعد الأيام الدامية التي شهدتا ثورة عالمة قام بها سكان المدينة ضد الجيش الفرنسي ومات فيها خلق كثير، فقد قرر كذلك أن تغادر جاليتها المدينة القديمة لتسكن وحدها المدينة الجديدة التي أنشأتها خارج الجدران، بشوارعها الواسعة التي غرست بالأشجار، وبناياتها المرتفعة التي هي على مثال الهندسة الأوروبية، أو رصعت جوانبها بالأحجار، واستقرت بها المصالح الإدارية الكبرى، وأقيمت بها مقاه واسعة ومطاعم فاخرة ودور للسينما، كما أنشئت بها ملاعب رياضية متنوعة تقام بها اللقاءات الكروية، ومسابح لم يكن الناس قد رأوا مثلها من قبل، وبذلك كان أهل فاس يجدون فيها متنفسا أيام العطل بعدما منعوا منها سكانها، ليبقى الأوروبيون وحدهم بها يعيشون حياتهم الخاصة بهم. أما المدينة القديمة التاريخية فقد عرفت هي أيضا شيئا من التنظيم، بعدما وصلت الكهرباء منذ نهاية الحرب العالمية الأولى إلى جميع دورها وأزقتها ومحلاتها التجارية، ووصلتها كذلك شبكة الماء الشروب التي أضيفت إلى شبكة ماء وادي فاس الذي كان يوزع منذ القديم على جميع دورها. وهكذا عرفت فاس بعض الازدهار بعدما غادرتها السلطات إلى الرباط. ونشأت بفاس نخبة وطنية ثقافية مكونة من شباب القرويين، وقدماء ليسي مولاي ادريس الذين كانوا يشاركون في كل التظاهرات بفكر التجديد، نظراً لثقافتهم الجديدة، واحتكاكهم بالفكر المعاصر. وتلك كانت نواة الحركة الوطنية التي قدمت لحكومة الحماية مطالبها الاستعجالية في بداية الثلاثينيات، قبل أن تطالب بالاستقلال في نهاية الحرب العالمية الثانية

وقد كانت لهم دراية وطلاقة باللغة العربية في كل الميادين سواء منها الشعبية أو الإدارية الرسمية.

الانغلاق المغربي القديم

منذ بداية القرن التاسع عشر أخذ المشارقة يقصدون البلاد الغربية للتعلم والتكوين فكانت الجماعات من الشباب المصري والسوري مثلا تغادر بلادها وتعبر البحر إلى فرنسا وإلى أنجلترا وإيطاليا. ونلاحظ بكل أسف أن بلدنا المغرب بقي منكمشا مطويا على نفسه رغم بعض السفارات التي كان يرسلها الملوك إلى أوروبا، والتي قدمت تقارير عن النهضة الأوربية وأنظمتها الحديثة. لكن بدون جدوى. وقد انتظر المغرب إلى نهاية القرن ليرسل جماعة من الشباب قصد تتميم تعليمهم. ويذكر التاريخ المقاومة والتجاهل اللذين لقيهما هؤلاء بعد عودتهم، ومن ذلك أن عامة الناس في فاس كانوا يعدونهم نصارى بعد ما رأوهم يلبسون اللباس الأوربى، وقد حكى بعضهم أن عامة جماعة الناس كان يرفضون الحديث معهم؛ فاشتكى هؤلاء إلى الملك الحسن الأول الذي أصدر أوامره بعقاب من يرفض محادثتهم بشدة. وجوابا على ذلك جعل الناس يخلون الشارع إذا رأوا أحدا قادما تفاديا لمكالمته ورد السلام عليه. وهكذا بقي الأمر حتى عقدت الحماية في أول القرن العشرين. وقد أنشأت أول مدرسة ابتدائية بفاس بدرب"الهكار" سنة 1908، مستوى تلامذتها الشهادة الابتدائية، بعد عقد الحماية سنة1913. وقد نال هؤلاء أيضا كثيرا من المضايقات التي بقيت مستمرة سنين بعد ذلك. ويحكي بعض قدماء تلاميذ مدرسة مولاي ادريس الثانوية التي بدأ العمل فيها في إحدى دور المدينة القديمة بزنقة الرطل ثم بدار الماسي بسويقة بن صافي قبل أن ينتقل إلى مقرها الحالي الذي بني لها خصيصا ببوجلود في بداية العشرينات، قال

إن أحد تلاميذ المدرسة الثانوية تقدم لخطبة فتاة من أهلها فأبى أبوها أن يوافق على الزواج دون أن يرى خاطب ابنته؛ ولما رآه رفض طلبه بحجة أن شعره محلوق على الطريقة الأوربية، وأنه لا يلبس البلغة التقليدية التي هي حذاء المسلمين.

استجابة لمتطلبات العصر

ـــ الحماية ـــ الحياة الثقافية في فاس ـــ الصراع الاجتماعي

ـــ نداء توجيهي إلى الطلبة ـــ جامعة القرويين ودورها التاريخي

ـــ رسالة جامعة القرويين اليوم ـــ القرويين ومحيطها

ـــ التكوين والتأطير ـــ الثقافة والتثقيف ـــ الحداثة ومفاهمها ـــ الترجمة

استجابة لمتطلبات العصر

قامت دائما مشكلة بين العقل والدين، وقد عرفها الإنسان منذ وقت طويل، وحاول الإجابة عنها بحلول متعددة؛ فالطبيعة لها قوانينها الثابتة التي لا تتغير، وكل من العلم والدين له مناهجه الخاصة التي أوجدها الإنسان لتدبير شؤونه في الحياة.

الحماية

للناس أضرحة عديدة داخل المدينة وخارجها أقيمت للصلحاء الذين عاشوا بها خلال تاريخها الطويل، وفيها يجتمع المنتمون إليهم من أتباع الطرق الصوفية ومحبو العائلات الشريفة التي لها باع كبير واحترام ثابت في قلوب أهل المدينة. وعلى رأس هذه الأضرحة ضريح الشيخ التيجاني وضريح سيدي علي بوغالب؛ لكن أشهرها هو ضريح المولى إدريس منشئ المدينة الذي له اعتبار خاص وقداسة بالغة في قلوب الناس. وقد جرت العادة قي القديم أن بعض الناس حينما يرتكبون مخالفتة كبيرة يلتجئون إلى ضريح المولى إدريس خوفا من العقاب. وكانت السلطة في ذلك العصر لا تتابعهم بل يبقى حراسها من رجال الأمن يراقبونهم في حدود الأزقة المحيطة بالضريح؛ فإذا ما حدث يوما أن تجاوز اللاجئون هذه الحدود الضيقة فإنه يقبض عليهم ويجري عليهم إذ ذاك العقاب الذي يستحقونه. وغالبا ما يكون هؤلاء اللاجئون من المتمردين أو الذين ارتكبوا إجراما ماسا بالنظام. وقد يدوم هذا اللجوء سنوات عديدة، حيث كان بعض اللاجئين خلالها يبيتون قي الحرم أو إذا كانت حالتهم تسمح بذلك فإنهم يستمرون في السكنى داخله، فيعيشون هم وأسرهم مطمئنين لأن قداسة المكان تحميهم وتمنع السلطة من أن تمد يدها

إليهم. وهذا وضع لم يكن بفاس وحدها فكان في بضع جهات أخرى بالمغرب كمراكش مثلا.

الحياة الثقافية في فاس

بقيت مدينة فاس منذ أنشأها إدريس الثاني سنة (192هـ)، حاضرة المغرب الكبرى وعاصمته العلمية والثقافية والدينية. وقد استطاعت المحافظة على هذه المكانة والقيام بهذا الدور حتى في الأوقات التي استقر فيها كرسي الملك بعيدا عنها في مراكش، وما ذلك إلا أنها كانت دائما موطن العلم والعلماء وملتقى الطلبة والباحثين، ومأوى للمغاربة أجمعين على اختلاف بيئاتهم وأصولهم وقبائلهم، فقد كانوا دائما يحجون إليها فيجدون فيها من مغريات الإقامة ما يحبب إليهم الانقطاع إليها واستيطانها، وذلك ما عبر عنه صاحب روض القرطاس الذي عاش في القرن السابع الهجري بقوله "مدينة فاس هذه حاضرة المغرب في وقتنا هذا " أما الجزنائي صاحب (جنا زهرة الآس في بناء مدينة فاس» من الذين عاشوا في القرن الثامن الهجري فيقول: (وانتهت مدينة فاس في أيام المرابطين والموحدين من بعدهم من العمارة والرفاهية والدعة والأمن والعامة ما لم تبلغه مدينة من مدن المغرب ولاسيما في أيام المنصور الموحدي وولده محمد الناصر).

فقد قصدتها منذ وقت مبكر جحافل من البربر من عرب إفريقيا الذين نزحوا إليها من القيروان ثم من أهل الأندلس، وتكونت بذلك نواة المجتمع الفاسي، يقول الجزنائي أيضا.. (فقد سكنها جملة من أصناف الناس وأهل الكور والأمصار، وانتقل إليها من جميع البلدان القاصية والدانية٠ فليس من أهل بلد ولا إقليم إلا ولهم بها منزل ومتجر وصناعة، واجتمع فيها ما ليس في مدينة من بلدان الدنيا وأتتها التجارت وأهل الصناعات من كل صقع حتي

تكامل بها كل متجر وسيقت إليها خيرات الأرض وجمعت فيها ذخائر الدنيا وتكاملت فيها بركات العالم).

وهكذا كانت فاس دائما في ازدهار وتوسع مستمر نتيجة لموقعها الجغرافي وتنوعها السكاني ونتيجة لوجود جامع القرويين بها، وكذا جامع الأندلس اللذين أصبحا منذ وقت مبكر مأوى للدارسين من العلماء والطلبة.

وإذا كان دور جامع الأندلس قد توقف في مرحلة من المراحل التاريخية، فإن دور جامع القرويين لم يتوقف أبدا، حيث أصبح هذا الجامع منذ تأسيسه ركنا أساسيا في المجتمع الفاسي الذي تكيف في نشأته وتطوره بحسب الدور الذي قام به هذا الجامع، ولم تعد مدينة فاس تتصور بدون جامع القرويين، كما أن القرويين لم تكن لتعرف ذلك الازدهار وذلك الإشعاع اللذين عرفتهما لولا ذلك المجتمع الفاسي الحي الذي كانت تتمثل فيه كل عناصر سكان المغرب وشمال افريقيا والأندلس مما حدا بابن أبي زرع أن يقول عن سكان مدينة فاس: (وسكان مدينة فاس أهل المغرب أذهانا وأشدهم فطنة وأرجحهم عقلا وألينهم قلوبا وأكثرهم صدقة وأعزهم نفسا وألطفهم شمائل وأقلهم خلافا على الملوك...) وهذه الشهادة في حق أهل فاس هي في الحقيقة قولة في حق أهل المغرب كلهم لأنهم كانوا يجتمعون في فاس، ويلتقون فيها، حتى وجد جيل جديد كل صفات الخير والفطنة والعقل التي كانت وما تزال لسكان المغرب الذين توافدوا على عاصمة المولى ادريس وتقاطروا عليها من كل حدب وصوب، وكانت لهم قابلية للتعامل فيما بينهم، فازدهرت تجارتهم وقامت صناعتهم وبرزوا إلى جانب ما ذكر في شؤون الفكر والثقافة عامة والعلوم الشرعية خاصة حتى قيل (إن أهل فاس بين عالم معلم، وطالب معلم ومحترف تجارة أو صناعة)

فتلك العناصر هي التي جعلت مدينة فاس مدينة التجارة والصناعة والثقافة والعلم والسياسة أيضا. وقد مثلت الثقافة أهم المجالات التي ازدهرت في فاس خلال تاريخها الطويل، وكان المركز الأول والأكبر للحياة الثقافية بفاس هو جامع القرويين فقد كان كسائر المساجد الإسلامية مكانا للصلاة، ودارا للعلم ونشر الثقافة والتوجيه والإرشاد، يغشاه العلماء والطلبة وأهل قاس، ولا أحتاج إلى التذكير بالدور العظيم الذي قاموا به لأنهم كانوا علماء صلحاء ولهم الفضل في كل شيء، وهم الذين يكتبون أولا البيعة للملوك والسلاطين... في آن واحد في علم المشرق وعلم القيروان وعلم الأندلس حيث الحركة العلمية كانت متصلة ومتواصلة بين المغاربة والمشارقة والقيروانيين والأندلسيين من خلال الرحلات التي قاموا بها طلبا للعلم ورغبة في زيارة الأماكن المقدسة فقد رحل العلماء والطلبة المغاربة الى كل العالم الإسلامي عن المغرب كثير من علماء وطلبة المشرق والأندلس والقيروان وتلمسان...

أقول هذا لأشير ولأؤكد على الانفتاح الذي عرف به مركز القرويين الثقافي بمدينة فاس وهو ما لم يكن يتيسر في الغالب في كثير من المراكز الأخرى، ولو كانت ذات حضارة وثقافة. فعلى الرغم من وجود حركة متواصلة بين مراكش والأندلس في عهد المرابطين والموحدين على مستوى الرحلات التي كان الأندلسيون يقومون بها إلى مراكش العاصمة آنذاك، ففاس كانت دائما مركز إشعاع وثقافة تزدهر فيها شؤون العلم والمعرفة.

أما عن المواد التي كانوا يدرسون فتشمل العلوم الشرعية الأدبية والعلوم البحتة من رياضيات تجريبية من طب وصيدلة، ثم العلوم العقلية من منطق وجدل وغير ذلك، كما كان هناك نظام الكراسي حيث يتولى التدريس شيخ

الجماعة من أصحاب علم أو مادة معينة، ويدرس عليه الآخرون وينتدب هو من يخلفه بعد موته أو قبلها حينما يجلس، بجانبه ليظهر للناس أنه ارتضى ذلك الشخص وانتدبه ليقوم مقامه فيما بعد.

وكانت أرزاق هؤلاء العلماء تصرف عما يقومون به، بعضها يصرف من هبات الملوك. وكان من يقوم الى جانب التدريس بمهن أخرى كالقضاء والفتوى والإنصات إلى الشهادة وتحرير وثائق الأنكحة والمواريث، ففي سوق سماط العدول بفاس الموجود بجانب القرويين كان العلماء بعد التدريب يخرجون للقيام بهذه الأعمال، كما كانوا يتولون الإمامة والخطابة في المساجد وكانت لهم كراسي عظيمة، فكان هناك مثلا كرسي لتدريس البخاري بشرح فتح الباري أوقفه صاحبه وجعل له أحباسا تدفع لمدرسه، وكرسي لتدريس موطأ مالك وغيره...

وكان بعضهم إلى جانب ذلك يحترف نسخ الكتب تورعا عن الأوقاف وعزوفا عن المناصب الرسمية. وإلى جانب العلماء كان الطلبة يتوافدون على فاس من أصقاع المغرب كله ومن خارجه، وكانت تهيأ لهم الظروف ليقوموا بدراستهم على أحسن وجه، فنجدهم يسكنون المدارس التي بني أكبرها في عهد المرينيين، يرتب فيها الطلبة لقراءة القرآن والأساتذة لتدريس العلم بأوقاف مع إمام ومؤذنين للقيام بالشعائر الدينية.

ومن هذه المداس مدرسة الحلفاويين (بناها بن يوسف المريني سنة670 هـ، والمدرسة البيضاء بفاس الجديد (أسسها أبو سعيد سنة 723هـ) وجددها السلطان محمد بن عبد االله العلوي سنة 1204 هـ، ومدرسة العطارين ومدرسة الصهريج (سنة 723 هـ)، ومدرسة الواد (سنة 723هـ)، والمدرسة

المصباحية والمدرسة العنانية ... وكل من هذه المدارس في الحقيقة جوهرة في ميدان الفن والإبداع فيما يخص التراث المغربي والأندلسي.

وإلى جانب المدارس والمكتبات التي اشهر بعضها شهرة كبيرة كمكتبات بعض الأسر والعائلات، مكتبة آل الغرديس ومكتبة بني ملزوم ومكتبة آل بن القاضي التي بلغت من الاكتمال الدرجة التي جعلت الناس يذكرونها ويؤرخون لها.

كما نجد مكتبات الزوايا ومكتبات القصور الملكية ومكتبات الخواص وكانت توجد بجانب القرويين بفاس مكتبتان الأولى خاصة بالطلبة يأتون لأخذ الكتب منها وعليها تاريخ إنشائها ومهام وقفها، ثم مكتبة خاصة بالأساتذة والعلماء.

ومعنى هذا أن الكتب كانت رائجة وأن سوقها كانت نافذة واكتسابها حرفة مثمرة لا تقل عن باقي الحرف الأخرى.

يأتي بعد هذا الحديث عن أهل فاس بعد الحديث عن العلماء والطلبة، فقد كانت القرويين تقوم بالنسبة لهم بدور الجامعة الشعبية. أي أنها لا تهتم بأصحاب المستويات العليا وأصحاب الشهادات، وإنما تهتم بعامة الناس، بتعليمهم وتثقيفهم ونفعهم فيها إذا ما أتوا إليها باحثين سائلين وكان العلماء يخصصون وقتا لإلقاء دروس خاصة بالعامة، وبعض هذه العامة كان مرتبطا ببعض الحرف كالدباغة التي كان لها عالمها وكذلك بالنسبة للحرف الأخرى.

كل هذا جعل العلم والثقافة يتجاوزان القرويين إلى غيرها من المساجد الصغيرة والزوايا والمحلات الأخرى التي تلقى فيها الدروس، وبذلك وجد

مناخ علمي عام شامل يعيش فيه الناس، وبذلك وجد هذا المثقف العادي الذي هو ليس بالعالم و في الوقت نفسه ليس بالجاهل الأمي المنقطع عن المعرفة والعلم.

ومن المواد التي كانت تدرس لهم الحديث والسيرة ومبادئ التفسير وغيرها، والدعاء والإرشاد ومبادئ الفقه والتوحيد.

إن الدور الذي كانت تقوم به القرويين لم يكن خاصا بفاس، وإنما كان للمغرب كله، والدليل على ذلك أن المغاربة كانوا يوقفون عليها من كافة أنحاء المغرب، فأحباسها اليوم في فاس وفي مراكش وسوس والريف وفي كل أنحاء المغرب.

لقد حرص أهل فاس على طلب العلم إلى جانب ما كانوا يشتغلون به من تجارة وصناعة، فقد كانوا يغشون دائما حلقات التدريس حتى وجدنا منهم من يستحق أن يسمى عالم العامة. وبالإضافة لذلك نجد جانبا ثقافيا حضاريا ومهما في ثقافة هؤلاء وهو الجانب الفني، ويتمثل في اهتمامهم وولعهم بالموسيقى الأندلسية أو بطرب الملحون.

بعد هذا كله نستطيع أن نقول: إن تلاقح السكان في مدينة فاس أعان على وجود فكر مغربي مميز فكانت دائما العاصمة العلمية والثقافية والعاصمة السياسية والإدارية وظلت كذلك وإن انتقل الحكم منها في بعض الأوقات.

وكان دور الجامعة هاما في تكوين هذا المجتمع وفي تكوين هذا الفكر الذي عرف به قديما وحديثا. فالفكر المغربي كان دائما فكرا جامعا شاملا ذلك أنك تجد تاريخنا وثقافتنا وعلمنا ووجودنا في الكتب والمصادر المختلفة

في كتب الفقه والسير والتاريخ والأدب واللغة... والحقيقة أن ثقافة المغاربة الأقدمين امتازت كثقافة عن باقي المسلمين قديما بالمشاركة، فكانت تدفع الناس دائما بمناسبة وبدونها إلى كل ما قد يعن لهم، فيقيدون ذلك في غير مظانه إذا اعتبرنا تنظيم هذه المظان بالمقياس الحديث.

أما جامعتنا - والحق يقال- حينما أخذت نظام التخصص الحديث عن الجامعات العربية، فإنها أبعدت الناس عن هذا، وجعلتهم إذا عرفوا شيئا في بعض التخصصات فإنهم لا يستطيعون أن يلجوا هذه المصادر الشاملة التي تعتبر مصادر متميزة بالمشاركة في ميادين متعددة - للبحث عما يهمهم، لذلك من أراد أن يبحث عن تاريخ المغرب وعن ثقافة المغرب وحضارته فعليه أن يتسلح بالثقافة الواسعة الحقيقية، وأن لا يقف عند حدود التخصصات الضيقة بمعناها الحديث ليدخل هذه المصادر القديمة، لأنه سيجد فيها من العلم الشيء الكثير ومن الثقافة الشيء الكثير، ومن الحضارة الشيء الكثير.

الصراع الاجتماعي

الاهتمام بكل الفئات وأشكالها وما يغيرها، مع الاهتمام بمختلف الأنساق والأنظمة السياسية والاقتصادية والقانونية والاجتماعية والرمزية، حيث تجري رهانات التغيير التلقائي والسلبي لنمطي البحث والإنتاج، تلك مجالات الأفكار التي تشكل تغير محاور البحث.

نداء توجيهي إلى الطلبة

كانت جامعة القرويين عبر تاريخها الطويل الذي يمتد ما يقرب من اثني عشر قرنا ضمير هذه الأمة الحي، وقلبها النابض، وسراجها المرشد للشريعة الصحيحة الحقة والسنة الرشيدة والحياة ا لكريمة.

وجامعة القرويين عندما تخاطب اليوم أبناءها وتناديهم، إنما تدعوهم للوقوف وقفة تأمل وتبصر، والى لحظة تفكير واعتبار لما يجري حولهم ويشغل بال الناس أجمعين، باعتبارهم طلبة اليوم. ورجال الغد، وأطر المستقل، وباعتبارهم أيضا جزءا لا يتجزأ من القوى البشرية المحركة للمجتمع، المعول عليها في نهضة بلادنا وتقدمها وازدهارها... وذلك حتى يحددوا موقعهم في المجتمع وخريطته، ومدى فعاليتهم وتأثيرهم فيه. وإسهامهم في بنائه وتقدمه.

جامعة القرويين ودورها التاريخي

منذ أن أسست فاطمة الفهرية رحمها الله وأحسن إليها سنة 245 هـ (منتصف القرن التاسع الميلادي) جامع القرويين وهو ينهض بدوره العلمي والثقافي والاجتماعي والسياسي، فضلا عن الدور الديني الذي قام على أساسه. فقد تكون في جامعة القرويين الفقيه والمحدث والمؤرخ والإخباري والحيسوبي والموقت والفلكي والطبيب والخطيب والزاهد المتعبد والأديب واللغوي والشاعر... كما اختلف إلي دروسها وانضم إلي حلقات علمائها التاجر والصانع والفلاح والعامل... ليستكملوا تكوينهم ويستعينوا في عملهم بالعلم والدراية.

وفى الفترات الصعبة من تاريخنا المجيد، قام طلبة جامعة القرويين وأساتذتها بالدور الرائد في ايقاظ الضمير الوطني وتوحيد صفوفه لمقاومة الاحتلال... إن القرويين هي الذاكرة العلمية للأمة والمحافظة على مقوماتها الروحية والثقافية. هي حصن هذا الوطن الحصين من كل ريح هوجاء وعاصفة مدمرة.

رسالة جامعة القرويين اليوم

واليوم وقد انتظمت جامعة القرويين في كوكبة الجامعات المغربية الحديثة، والمؤسسات العصرية، فهل ستستمر في النهوض بدورها التاريخي المنوط بها؟ وهل تؤثر في محيطها الاقتصادي والاجتماعي، كما أثرت فيه بالأمس البعيد والقريب؟ وهل ينتفع المغرب اليوم بعلم أبنائها وخريجيها وعملهم كما انتفع بذلك في الماضي انتفاعا كبيرا؟

إن العالم يعج بالآراء، ويصخب بالأفكار والفلسفات والثقافات؛ وجامعة القرويين لابد أن تدلي بدلوها وتقول كلمتها في كل ذلك وتسمع صوتها، فتقدم للناس صورة الإسلام السني الصحيح المستنير، وتجادل بالكلمة الطيبة وتحتج برفق ولين، وتشارك في تقديم الحلول المرضية لمشاكل العصر بالفتاوى الصائبة، والمفاتيح الملائمة لمعضلات العالم الحديث. غير أن ذلك لن يتأتى إلا إذا تكون طلبتها التكوين المتين السليم، وتمكنوا من العلم الصحيح، وتأدبوا أحسن تأديب، وتابعوا السير على الدرب الذي شقه أسلافهم، ونسخوا ما بدأه أجدادهم من مطاولة بالقلم، ومجادلة بالفكر، ومحاجة بالنظرية لصالح المجتمع. فمن واجب أهل القرويين أن يحافظوا على ذلك الدور الرائد الذي نهضت به مؤسستهم على امتداد تاريخها الطويل في مجال الشريعة الإسلامية، والثقافة العربية المجيدة والحضارة المغربية الأصيلة. ومن

واجب طلبتها تعميق المعرفة بحقائق الإسلام وقيمه السمحة الداعية إلى التآخي والتكافل والتناصح، والسعي إلى إقرار مبدأ الحوار، بموضوعية علمية، قصد التفاهم الحقيقي، والتقارب الفعلي والتواصل الفعال مع عصرها.

القرويين ومحيطها

لم تكن جامعة القرويين، خلال تاريخها المجيد في خدمة محيطها المحلي فقط، بل كانت جامعة المغرب كله، واليوم، وكلياتها منتشرة في الجهات الوطنية الكبرى فإنها تجتهد في هذا المحيط الشاسع والغني لتؤدي وظيفتها على أحسن وجه وأكمله، متطلعة دائما إلى مزيد من الفعالية والرفعة والكمال بعناصرها الثلاثة المكونة لها، وهي الإدارة المسؤولة الهادفة، والطالب المطلع المجد، والأستاذ المخلص المرشد، وذلك لتحقق رسالتها المتمثلة في ما يلي:

- الدور الإسلامي الكامل بخدمة علوم الشريعة وعلى رأسها القرآن الكريم والحديث الشريف.
- الدور الثقافي والتثقيفي العام.
- الإسهام الفعال في التطور الاجتماعي والحضاري لبلادنا.
- الحفاظ على التراث الثقافي وتطويره.

وجامعتنا وهي في خدمة هذه القضايا إنما تسعى لخلق العنصر الفاعل في الحياة، عبر كل مجالاتها الدينية والثقافية واللغوية والاقتصادية والاجتماعية، كما تسعى إلى تزويد المجتمع بما يحتاجه من طاقات وكفاءات ويد عاملة عالمة، ونظم حية متطورة.

التكوين والتأطير

لقد كان التحديث الذي عرفته جامعة القرويين أخيرا مصدر خير وفتح عظيمين، فقد عرف التعليم فيها تحسنا نوعيا، مادة ومنهجا وهدفا، حينما أصبح يستهدف في كلياتها تربية الكفاءات وتبريزها، وتبيان المهارات وتأكيدها؛ فرغم أن عملها ككل جامعة محترمة هو إنتاج المعرفة وتبليغها وتلقين العلوم الشرعية واللغوية والقانونية والأدبية والإنسانية للطلبة، فإنها لم تكن غافلة أبدا عن أسس التعليم الحديث والتأطير العصري وأهدافهما بل إنها عملت - وتعمل جادة - على تسهيل أصول العملية التعليمية وتبسيطها وتأصيلها، ومساعدة الطلبة للأخذ بناصية العلوم وتوجيههم، وشحذ هممهم وإبراز مهاراتهم وخلق روح الإبداع والابتكار فيهم.

غير أن التطورات المتلاحقة والنمو الاجتماعي والاقتصادي السريع، كل ذلك يحتم على أبناء القرويين الاهتمام بمشكلات العصر ومعرفة قضاياه الكبرى، واحتمالات المستقبل في كل المجالات. كما أن على طلبتها التزود بالزاد اللائق من المفاهيم والمعرفة الملازمة للمستقبل المرجو.

الثقافة والتثقيف

لما كانت الثقافة عاملا قويا من عوامل التنمية فإن جامعة القرويين واعية كل الوعي بأهمية المجال الثقافي؛ فقد جعلته في أول اهتماماتها ومن ضمن برامجها، وذلك قصد الوصول إلى الأهداف التالية:

- توسيع الأفق المعرفي العام.
- تأصيل القيم الإسلامية الخالدة مع امتلاك قيم الحداثة.
- ملء الفراغ العلمي والفكري الذي يشعر به الطلبة.

- السعي إلى بلورة ثقافة حوارية تواصلية عصرية.

إن الثقافة بمعناها الواسع - كما لا يخفى على الجميع - تشمل كل ما ينتجه المجتمع من إبداع وفن وعمارة وعادات وتقاليد وأعراف، إضافة إلى كل ما له علاقة بالدين والأخلاق والقيم. وعندما ندعو الطالب لتمثل ثقافة عصره، فإن ذلك ليس غاية في حد ذاته، وإنما الغرض هو تمكينه من مواجهة محيطه والتحكم فيه، وتسخير معطياته لصالح المجتمع المسلم والإنساني عامة، كما أن في الإلحاح على التفقه في الدين دعوة إلى الثقافة المؤسسة على قواعد الإسلام وأصوله، ودعوة إلى العلم بمختلف جوانب الحياة الدينية والدنيوية.

إن جامعتنا عندما تدعو إلى الثقافة والتثقيف لتدعو في نفس الوقت إلى بلورة الثقافة الإسلامية الخالدة، والتبحر في علوم الرواية والدراية وعلوم الآلة المساعدة، كما تسعى كذلك سعيا حثيثا إلى تفهم قيم الحداثة لأهميتها في فهم العالم الحديث.

لقد أصبحنا نرى طلبة الجامعات تغريهم كثير من الدعوات المغرضة، وتجذبهم كثير من التيارات غير السليمة المشكوك في نيتها، فتأخذهم إليها لأنها تجد طريقها إليهم بسرعة، نظرا لغياب الحصانة الثقافية الموضوعية القوية، والمناعة العلمية المتينة، وكل ذلك يدعو إلى السهر على تحصين الطلبة وإشباعهم بالقيم الوطنية والإسلامية، والقيم السليمة للحداثة، والعمل على إعادة الثقة إلى نفوسهم، وبعث الآمال فيهم وتبديد غيوم التشاؤم والقنوط من أنفسهم، وبعث روح الخلق والابتكار فيهم، وإعادة ملكة الإبداع إليهم ولن يتم ذلك إلا بالتقويم الصحيح والنصح السديد، وعبر ثقافة الحوار والتواصل.

إن ثقافة الحوار هي السبيل الأنجع لتربية الأجيال على الانفتاح، وتمكينهم من التواصل مع المحيطين الخاص والعام، وطرق التواصل هذه معبدة وقنواتها واسعة. وقد يكون المجهود اليسير في هذا المجال؛ ومريحا وفاعلا في نفس الوقت؛ ومن شأن ثقافة الحوار أن توصل إلى تعايش أفضل وتبادل أوسع. ولعل استغلال أدوات التواصل المكتوبة والشفهية والمسموعة أحسن استغلال خير مساعد على توسيع الأفق المعرفي للطالب، وملء الفراغ العلمي والثقافي الذي يشكو منه، وهو ما يؤهله لمواجهة المستقبل بعتاد قوي، وعدة متينة من الفكر المستنير، والعلم المتين، والثقافة الفاعلة.

الحداثة ومفاهيمها

يعد إيقاع الحضارة المعاصرة سريعا، وخطواتها متقاربة، فالثورة التكنولوجية والإعلامية والتحول الثقافي النوعي والمتميز، والشروط الاجتماعية... كل ذلك ولد نوعا من الصراع القيمي بين الفرد ونفسه، وبين الفرد ومجتمعه، وبين المجتمعات نفسها، سواء أكانت القيم دينية أم أخلاقية أم إنسانية أم اجتماعية، أو في المجالات الأخرى كاللغة والأدب وأنواع السلوك اليومي. ومع ذلك تبقى قيم الحداثة في مجملها وفي شموليتها الشغل الشاغل لعلماء العصر على اختلاف مشاربهم وتعدد مذاهبها واختلاف مناهج البحث لديهم. وهذه ليست مناسبة لتفصيل القول في هذا الموضوع، وتحليل قضاياه الكبرى والصغرى، وإنما هي مناسبة للتساؤل عن كيفية تمثل طلبتنا لقيم الحداثة، وسعي علمائنا لتهييء الأرضية الملائمة لتكييفها مع المحيط الاجتماعي الإسلامي، بالطريقة القويمة السليمة، لمعرفة ما يؤخذ منها وما يرد؛ وذلك لئلا تبقى الحداثة غريبة عنا، بعيدة منا، لأن مدلولها الحقيقي

مشوش لدينا وغير واضح في أذهاننا، ونبقى نحن في غفلة عن الصيرورة التاريخية.

إن نظام قيم الحداثة بمثابة فكر اجتماعي حديث، يرشد إلى تقدير المعايير الحضارية، ويهدي إلى تقييم التغيرات العالمية، فلا يخفى على أحد الآن أن مجال التكنولوجيا عامل حاسم في النمو الاقتصادي، كما أن امتلاكه عامل ازدهار اجتماعي وموفر حقيقي للطاقات الفكرية والمجهودات المادية، باعتبار أن تنمية الثقافة وتطورها مرهون به ومشدود إليه. ويمثل الإعلام المتدفق الآسر، ووسائل الاتصال المتطورة والمتقدمة في العالم المعاصر حركة لا تقل خطورة عن سابقتها، بل انها مرتبطة بها ارتباطا متينا.

في إطار ما سبق ذكره، وفي ظل الظروف الوطنية والدولية، والتحولات الاجتماعية والثقافية، ندعو طلبة جامعتنا إلى فهم العالم، للتأثير فيه والمشاركة في مسيرته، وندعوهم لفهم المغزى العميق لما يحصل في ساحة العلم، ومعرفة نظام الفكر الذي يحكمه، ويسيطر على البشرية في هذه الحقبة من الزمن.

كما ندعوهم إلى الجمع بين الأصالة والمعاصرة، والتوفيق بينهما، جمعا علميا واعدا وتوفيقا سليما دقيقا لأن أصالتهم في مبادئهم الدينية وقيمهم الوطنية، ومقوماتهم الثقافية... ولأن معاصرتهم في تمثلهم لقيم الحداثة التي بها تنفتح لهم آفاق المستقبل وتتم لهم المشاركة فيه.

- ندعو طلبتنا إلى الأخذ بزمام الثقافة العامة، والانفتاح في مجال التخصص الضيق، فلا أحد يجادل في دقة التخصص المتناهية، ومردوديته

المثمرة، وإنتاجيته الغزيرة، غير أنه لابد لصاحبه من التفتح ليزيل عن نفسه غشاوة النظرة الأحادية للأشياء وللعالم.

- على طلبتنا أن يكونوا على دراية حقيقة تامة بأصول ديننا الحنيف، وأن يعملوا على تحسين صورة الإسلام والمسلمين في كل المجالات فذلك واجبهم الأول، كما أن عليهم معرفة تاريخ وطنهم، والاطلاع على ما يجري في العالم من حوله، فمن شأن ذلك أن يقوي عزائمهم، ويقربهم أكثر من وسائل التواصل الحديثة، ويجعلهم يسايرون العصر في هدوء وتبصر.

إننا لا نطمح إلى إجازة الطلبة في الشريعة واللغة وعلوم الدين وأصوله فقط، بل نطمح أيضا إلى تأهيل الجيل الذي يملأه الطموح والتطلع إلى غد أفضل وحياة كريمة، وهو الذي يثبت ذاته باستمرار، ويكون فاعلا في المجتمع بالتأكيد على وجوب الاهتمام بالقضايا التالية:

- الفكر الإسلامي المنفتح المستنير.

- البحث العلمي الرصين في كل التخصصات.

- ثقافة الحوار والتواصل والإبداع.

- إتقان اللغات الحية.

- التغيرات الاجتماعية والحضارية وعلاقتها بإصلاح التعليم.

- تعاطي الرياضة البدنية التي تخرج طالب القرويين من القوقعة التقليدية، فيقوى بدنه، وتزدهر شخصيته بسلامة جسمه، إذ العقل السليم في الجسم السليم.

ومن واجب طلبة القرويين اليوم أن ينشغلوا بالفكر الإسلامي المبدع الخلاق المنفتح المعتدل، ويهتموا بقضاياه الصغرى والكبرى، فان الإشكالات التي تواجهه في عصرنا هذا لا تقل خطورة عما عرفه في العصور الزاهية حينما نهض بوظيفته، وتصدى لكل التحديات الثقافية، ودافع عن الإنسان وعن العقيدة والشريعة، وصحح ما انحرف منها، وقوم اعوجاج الزائغين عن الملة، وتصدى لمشكلات عصره خير تصد، ووجد الحلول الملائمة لمعضلاته، وذاد عن الدين وحماه من البدع وأضرارها والملل والنحل ومفاسدها.

وإذا توافرت إلى جانب ذلك الشروط الموضوعية للحوار فإنه يؤدي إلى أن ما يأخذه أي طرف من الطرف الأخر من قيم ونماذج ومعاملات وأنظمة إنما يقتبسه عن طواعية وطيب خاطر، لا بوصفه حضارة أجنبية دخيلة مفروضة قهرا، أو ثقافة وافدة غريبة لا تنتج إلا الاستلاب الفكري الذي يخرجه ويبعده عن الأصول الحضارية وهوية الأمة.

ولضمان نجاح الحوار لابد لطلبتنا من إتقان اللغات الحية، لأنها نوافذ يطل بواسطتها على عوالم أخرى يحسن - بل يجب - عدم تجاهلها، وعليهم الاهتمام بمجال الإعلاميات، فمن شأن ذلك كله أن يساهم في تحديث المجتمع، وتطوير بنياته الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، ويمكن طلبتنا من العلم النافع الذي يفيدهم في مستقبلهم أكبر إفادة وأنجعها .

اسهروا على أن تبقى جامعتنا فضاء للتكوين المتين والحوار والتسامح، واهتموا كثيرا بثقافتكم العامة لئلا تبقوا محصورين في الآفاق الضيقة، فمن أجل هذا تهيئ لكم كلياتكم حسب توصيات مجلس الجامعة محاضرات إضافية عامة في كل مجالات المعرفة، فتشمل العلوم الدقيقة وتطورها والعلوم الإنسانية والاقتصادية والاجتماعية لأهميتها في العصر الحديث

وضرورتها لمعرفة عالم اليوم في مختلف تشكلاته وتطوراته، أما المحاضرات الخاصة في العلوم اللغوية والأدبية فهي لسلامة لغتكم ورقيها وعمقها واكتمالها.

إن من شان الثقافة العامة القوية - إلى جانب المعرفة التخصصية - أن تقوي فكر الطالب، وتجعل أحكامه أكثر نضجا وأقرب إلى الصواب، وتهيئه ليألف فكر التغيير والحداثة. وبصفة عامة فالمرور بالجامعة يجب أن يمثل بالنسبة للطالب في نفس الوقت تعمقا في أصول دينه وثقافته الوطنية، وقطيعة مع الأفكار المسبقة والتقليد الأعمى وكل أنواع السلوك التي لا ترتكز على المنطق السليم والتفكير العلمي الواعي الرصين. من أجل ذلك يلزم على الطالب وهو في الجامعة أن يعرف كيف يتعلم من خلال المحاضرات التي يتلقاها، وكذلك من خلال عمله الشخصي واجتهاده الفردي، إذ أن التكوين الجامعي الحق هو الذي يكون لصيقا بالبحث والتنقيب، وإلا أصبح ترديدا واجترارا لآراء الآخرين.

وأخيرا ندعو طلبتنا وطالباتنا إلى التفاؤل والأمل في المستقبل، والمشاركة الفعالة في بنائه بالقيم العلمية والثقافية الواعية، ونحن نعرف أن المثقف لا يمكنه أن يكون عالما مطلعا على كل المتغيرات العلمية بشكل كامل ودقيق، وإنما ينبغي له أن يكون قادرا على فهم المغزى العميق لما يحصل في ساحة العلم ومجالات المعرفة.

إن الرجوع إلى الحق والصواب، والتشبع بالقيم الإسلامية السمحة، والتمكن من قيم الحداثة والتطلع إلى مستقبل مشرق، وفتح أبواب الأمل مسعى ومطمح لابد لطلبتنا من إدراكه والسعي لتحقيقه.

من أجل ذلك كانت جامعة القرويين تعمل فيما مضى، ونعمل اليوم أيضا من اجله بإخلاص واجتهاد، قاطعين العهد على أنفسنا فنحن لا نكل ولا نمل حتى نصل - إن شاء الله - بطلبتنا وأساتذتنا إلى المكان المرموق اللائق بجامعتنا في الوطن وخارجه، وفق ما يريده ويدعو إليه باستمرار صاحب الجلالة مولانا الحسن الثاني راعي جامعة القرويين وحاميها حفظه الله.

جامعة القرويين جوهرة في جبين المغرب

منذ اثني عشر قرنا وهي في خدمة الإسلام والمسلمين، تُخرِّج علماء أجلاء يشاركون مشاركة فعالة في بناء هذا الوطن وجمع كلمته؛ وإذا كان هذا التاريخ الطويل يكوِّن مادة تراثية معدودة، فإن بجانبه تراثا آخر لا ماديا، لا يقل عن التراث الآخر قيمة وأهمية، هو الذي يؤخذ اليوم بعين الاعتبار في عالمنا المتطور المتقلب الذي لا يتوقف عن التغيير.

حينما عينني المرحوم الحسن الثاني في بداية التسعينات من القرن الماضي، عميدا لجامعة القرويين، بقيت على رأسها ما يقرب من عشر سنوات، قمت بمجهودات جبارة لجعلها في الصفوف الأولى مع الجامعة الحديثة، وفي طليعة هذا العمل تكوين علماء مزدوجي اللغة لهم تكوين متمكن في اللغتين، العربية واللغات الأجنبية لا يقل عن تكوينهم في اللغة العربية، وإنما يساويه ويتكافأ معه، ويسمح لهم بأن يقوموا بأبحاث علمية في اللغات الأجنبية، بل أن يدرسوا الإسلام ويكتبوا فيه بهذه اللغات التي لم يعد العالم الحديث يسمح لمن أراد الدخول فيه دخولا فعالا بتجاهلها وتجنبها، وذلك لأصواتها المسموعة في كل أرجاء العالم.

وقد كتبت بذلك مشروعا قدمته للمرحوم أحمد بن سودة، المستشار

بالديوان الملكي آنذاك، وبعدما اطلع عليه، حبذ فكرته ووافق عليها، ووعدني بأنه سيقدمه إلى جلالة الحسن الثاني، إيمانا منه بأن عصر تكوين العلماء بلغة واحدة قد مر وانتهى، وبأن العلماء ابتداء من اليوم يجب أن تكون لهم الاستطاعة التامة برفع أصواتهم بلغات تدخلهم في عوالم مختلفة، وتجعلهم في مواجهات مستمرة مع الذين يبحثون في لغات أخرى.

وبعد مرور شهرين نادى علي المستشار المرحوم عبد الهادي بوطالب الذي أخبرني بأن صاحب الجلالة قد كلفه بالملف المذكور، وأنه اطلع عليه وأعجبته الفكرة الرئيسية فيه، لكن بقيت بعض الاستفسارات التي يريد أن يذاكرني فيها، وبعد نقاش مستفيض في الموضوع أخبرني بأنه يوافق على المشروع كليا، وكتبنا معا في الحين رسالة إلى صاحب الجلالة نخبره بهذا. وافترقنا على أن نتصل مرة أخرى للتفكير في كيفية تطبيق المشروع، لكن المرحوم الحسن الثاني توفي بعد خمسة عشر يوما، فنسي المشروع نهائيا، وربما يكون هذا الملف ما زال موجودا في الديوان الملكي يعثر عليه من بحث عنه.

وها نحن اليوم نعود للحديث عن الدور الذي يمكن العلماء أن يقوموا به في عالم لا نقول فيه إنه ينتقد الإسلام فقط، وإنما يتحدث عن كراهيته وتحميله كل الصعاب التي يعيشها العالم الحديث. وأقول بهذه المناسبة، إن تكوين الأئمة في أوروبا هو من نوع تكوين العلماء الذين تحدثنا عنهم، فهو يتطلب إلى جانب التكوين في الإسلام والعربية تكوينا لا يقل عن المتخصصين الجامعيين في تلك اللغات، وأنا أرى ولعلي قلت هذا في كتابات أخرى أنه لا يُكتفى في المستقبل بإنشاء مساجد في أوروبا، وإنما تنشأ مراكز ثقافية إسلامية يكون أحد فضاءاتها المسجد ومعه فضاءات أخرى للقاء بين المسلمين وغيرهم، ممن يقبلون على تلك المراكز بدافع الفضول، وحب معرفة ما

يفعله المسلمون، وهم يتصلون فيما بينهم في تلك الفضاءات المعزولة، يجدون فيها مكانا للحوار من مستوى راق، وأمكنة أخرى كالمكتبة مثلا وقاعات للدراسات وغيرها، وبذلك تزول الوحشة من المسلمين وتعود الثقة إلى النفوس نتيجة للتعارف والتقرب، وفي هذا أيضا نفع لبعض المسلمين ممن لهم تصورات خاصة عن الإسلام ما أنزل الله بها من سلطان، وهذا يظهر الدور الثقافي الفعال الذي ينتظر من العالم الذي يترأس المركز الثقافي، والذي يستطيع أن يشارك في كل محاورة، وأن ينصت إلى كل الآراء التي ربما يضيق بها والتي يستطيع دحضها بالحجة والدليل.

وبهذه المناسبة أعلن أن خير طريقة للتكوين في مدارسنا للتلاميذ على تنوع مسالكهم ومدارسهم، أن تدرس العلوم مستقبلا وفي نفس الوقت باللغتين العربية والفرنسية. فكل لغة ستقوي الأخرى وستتماسك معها، مما يرفع مستوى التلاميذ ويقويهم ويجعلهم متمكنين من اللغتين تمكنا متينا. فقد مر عصر التوحد اللغوي وحان وقت التعدد والانفتاح. ونحن نسير بهذا من عصر الانغلاق إلى عصر التفتح، خصوصا وأن لدينا الأساتذة الأكفاء الذين يمكنهم في آن واحد التدريس بلغتين والامتحان بهما.

ولعلي لست في حاجة مرة أخرى إلى التنبيه إلى أهمية معرفة اللغات الأجنبية معرفة ثابتة متمكنة ينتقل بواسطتها من أرض الضيق والتشدد إلى عالم الانفتاح والمعرفة الحقيقية وثقافة العصر.

الترجمة

الترجمة عموما قراءة حضارة وثقافة أخرى؛ إنها وسيلة كبرى من عوامل التفاهم والتقريب بين الشعوب، استعملها الإنسان منذ القديم

للتعريف بنفسه، ولمعرفة الآخرين، ونصب الجسور بين ثقافته ومعتقداته وبين الثقافات الأخرى، قصد هدم الحدود بين الحضارات، وإزالة الفوارق، والتقريب بين المجتمعات، أو قصد الوصول إلى الغير والتغلغل في خصوصياته.

واعتبارا لتطور الحضارة وتعدد وسائل النقل والتواصل، صارت الترجمة تمثل الوسيلة الأولى لتلاقح الثقافات، ومحو المسافات بين العقليات والحضارات.

وقد أصبحت لدينا اليوم من القضايا الملحة الأكيدة، لما يترتب عليها من المصالح، لتبليغه رسالتنا إلى من لا يتكلم العربية فمهمتها مختلفة الأوجه من دينية وثقافية حضارية لا تترك للقاصرين ثقافيا وعلميا، وإنما يرشح للقيام بها العلماء العارفون من متعددي الاختصاصات، بتعمقهم في اللغة العربية وثقافتها، وفي اللغات الأجنبية، المشهورون باستنارة الفكر والمعرفة الدقيقة بأحوال من يتم نقل التراث إليهم فمن شأن هؤلاء أن لا تخلوا أعمالهم من معضلات الترجمة وهي كثيرة، فتقديم النصوص المنقولة قد يفقدها فصاحتها وبلاغتها وطلاوتها التي لها في لغتها الأصلية وتصبح في اللغة المنقول إليها عبارة عن مكتوب لا روعة له ولا سحر ولا تأثير، وكأنما هو نتيجة عمل قامت به آلة جامدة أصابه جمودها وشلته، فلم يعد له سحر ولا جاذبية ولا تأثير.

وباعتبار أن للغة الأجنبية منزلة كبيرة في نظام التعليم عندنا فإننا لا نرى للقائمين على هذا وجودا يذكر. وهذا ما كنا نهدف إلى تلقينه بكيفية عصرية جديدة لشبابنا المتحمس إلى الحياة، المتسائل عن وجوده ومعناه فيها. ومن شروط هذا العمل اليوم أن يكون خطابا موجها إلى الناس كافة، يستمد أسلوبه من معاني اليسر والإحسان والاستقامة والتسامح والتقوى.

أسس هذا الخطاب وعناصره الكبرى ثلاثة كما هي في كل أنواع الخطاب: المرسل والمرسل إليه والبلاغ الذي يرسل الخطاب، وهم القائمون عليه المكلفون، بتقديم حقائقه، فهم ملزمون بأن يكونوا في المستوى علما وعملا لينجحوا في تحسين صورة الإسلام، وفى التعريف به مبرأ من الشوائب، مطهرا من الأكاذيب والأغاليط التي علقت به ظلما وبهتانا.

والمرسل إليه الذي يتلقي الخطاب هو الطرف الآخر الذي نحرص على أن ينفتح ليتلقى الرسالة ويعيها ويفهمها؛ حق فهمها لذلك يلزم أن يكون البلاغ في مستواه الثقافي والعلمي، مستوعبا لطبيعة أحواله ومستواه الحضاري، محيطا بظروفه التاريخية والدينية، وبمواقفه الكبرى من الدين والفكر والسياسة والاقتصاد، وكل قضايا الساعة، مع اعتبار ثقافته ومناهجه في التفكير، وأساليبه في مواجهة ما يحدث من القضايا، وما يظهر من مشاكل.

إن الإنسان صاحب الحضارة الحديثة المكينة، والثقافة المهنية الرفيعة، والاقتصاد المزدهر، والفكر المبدع، والعقل الناقد، والعلم الخلاق، والقوى المسيطرة يعيش في بحبوحة من الرخاء تزيد كل يوم سعة وقوة وشمولا، لا وقلقا مع ذلك.

حضارته مؤسسة على التغيير والتطوير، والمراجعة والنسبية، وعقله الجبار قائم على قواعد من التحدي والمجاوزة والصلابة، وحياته مرتكزة على النتائج الباهرة التي يحققها بوسائل البحث العلمي الحديث في كل ميدان، أما تفكيره فهو منحصر في المركزية الأوروبية الغربية التي يعزو إليها كل إنتاج وتجديد، ويحصر في دائرتها كل أنواع العلم والثقافة والمعرفة، وينسب إليها كل خير عرفته الإنسانية قديما وحديثا؛ أما غيره فلا يعترف له في

أحسن الظروف إلا بالقيام بمهمة التبليغ، والوساطة بين القديم والحديث، ويكاد ينفي عنه كل إبداع أو ابتكار.

هذا هو نموذج المخاطب، فكيف نخاطبه، كيف نجعله يطلع على فكرنا وحضارتنا وثقافتنا بالشكل الذي يرضينا، ويكون موافقا للحقيقة والتاريخ، ويثير اهتمامه؟

الثقافة بين ماضيها وحاضرها ومستقبلها

ـــ الحوار ـــ ما علاقة المثقف بالحداثة؟ ـــ ما هي سمات المثقف ـــ ثقافتنا وهويتنا الوطنية ـــ حوار الحضارات والثقافات ـــ مصر أم الدنيا ومعلمة العالم العربي ـــ مناهج التكوين الفكري ـــ الأمازيغية هي لغة المغاربة الأولين ـــ اللهجة الدارجة الجزائر ـــ هتلر ـــ الفرانكفونية ـــ الأسر الشريفة بفاس ـــ التعليم عامة ـــ الحرب الإلكترونية ـــ الزيتوني ـــ ناتانياهو ـــ أمريكا ـــ الشهادات العربية الثلاث ـــ الطبخ الفاسي

الثقافة بين ماضيها وحاضرها ومستقبلها

جعل أجدادنا العلم والثقافة مطلبهم وغايتهم الكبرى في الحياة، وعاشوا بها، وأكرموا رجالهما على مر العصور، واتخذوهما سبيلا للوقوف على أسرار الكون والوجود، وتحروا عند الطلب النافع والمفيد منهما دنيويا وأخرويا، للحصول على سعادة الدارين، فلم يستغلوا العلم لإلحاق الضرر بالإنسان وتدمير الحياة وتحويلها إلى جحيم لا يطاق.

وقد اهتموا بالثقافة بجميع أنواعها، فعنوا بالعلوم الدينية من تفسير وحديث، وفقه وأصول، كما عنوا بالعلوم اللغوية والإنسانية والطبيعية التي بحثوا فيها من ناحية أصولها ونظرياتها وقوانينها، وكانت لهم فيها تجارب وآراء ونظريات جريئة، وابتكارات أصيلة مازالت حتى اليوم.

ومما يدل على عظمة أجدادنا وتفتح أذهانهم مواقفهم المشرفة من الثقافات الأجنبية، التي لم يرفضوها مسبقا، ولم يستهينوا بها وإنما نقولها إلى لغتهم، ونظروا فيها واستفادوا منها، وبنوا عليها وأضافوا إليها الكثير، مما تدين لهم به ثقافة العصر وحضارته، رغم أن بعض النفوس المريضة تريد اليوم ستر هذه المساهمات وإخفاءها جحودا لفضل المسلمين، وإنكارا لمشاركتهم الكبرى في تقدم العلم والفكر ولكن أنى لهم ذلك؟

وقد اتخذ المسلمون من المساجد معاهد مفتوحة باستمرار لطلب العلم، فكانت حلقاته بها لا تنقطع، كما جعلوا منها دورا كبرى للثقافة، وأنشأوا المدارس في كل بلاد العالم الإسلامي، فأقبل عليها الطلبة إقبالا منقطع النظير. ثم كانت الجامعات الكبرى في معظم العواصم الإسلامية: ببغداد، وقرطبة، وتونس، والقاهرة، وفاس، ومراكش، وغيرها من الحواضر، تعج بأهل

العلم وتزدحم بهم يتحلقون حول أساتذتها، ويستفيدون من مكتباتها التي ضمت أعدادا لا تحصى من الكتب المنسوخة خصيصا لها ولروادها.

وإن الدارس اليوم ليدهش أمام الأساليب التي استعملها المسلمون في تدوين علومهم وتحقيق مسائلها : فقد حذروا مثلا من أخطاء النص، وأشاروا إلى قواعد تصحيحه ومعارضته بغيره، وإلى احترام الرواية، والاعتناء بالمحتويات والفهارس، وذكروا المصادر عند النقل، مما يدل على روح علمية ونقدية نادرة (تكاد تضارع) بل لا تقل في شيء عن الأساليب التي يسير عليها علماء العصر الحديث.

بهذا نرى أن الثقافة الإسلامية بمختلف مظاهرها عرفت ازدهاراً كبيرا في الماضي، حيث أقبل الناس عليها يتدارسونها، إيمانا منهم بقيمتها، واعتبارا لفائدتها وأهميتها، فعرفت تطورا فائقا وازدهارا مثاليا، وشاركت في تقدم المجتمعات الإسلامية، وفي حل مشاكلها وفك معضلاتها، بما أوجدته من حلول وما حققته من تقدم.

واليوم، وقد غزا الغرب عالمنا بعلومه وتقنياته، نجد المسلمين قد وقفوا منبهرين أمام هذا الغزو الحضاري الشامل الذي جرهم إلى التهاون بثقافتهم وتراثهم، وهجر علومهم، وعدم اعتدادهم بها، وهو ما أفقدهم شخصيتهم حتى كادوا أن ينسوا وجودهم بالاندماج في ثقافة العالم الغربي، والذوبان فيها، مغررين بالتعصب الثقافي الأوروبي المقنع بستار من العقلانية الكاذبة، والمقدمات الفاسدة التي تدعى أنه لا يعقل أن تكون للبلاد المتأخرة حضارة، وثقافة وإنجازات علمية، على مستوى حضارة العالم الغربي وثقافته وتفكيره الفلسفي والديني؛ وأصل هذا كله إعجاب بالنفس وأنانية في التفكير لدى الغربيين، ترد كل تطور وتنسب كل اختراع وإنجاز مهم في تاريخ الإنسانية

إلى أجدادهم الإغريق قديما، وإليهم أنفسهم حديثا، ضاربة صفحا عن جهود المسلمين ومساهمتهم الواسعة في إنماء الثقافة وتطور العلم والفكر، ومنكرة مشاركتهم الكبرى وإنجازاتهم العظمى في كل الميادين.

كل هذا قي الوقت الذي نلاحظ فيه أيضا أن هؤلاء الغربيين حائرون ويائسون، فهم كلما اتسعت علومهم، وارتقى تفكيرهم وتقدمت صناعتهم، كثر بذلك قلقهم، وقلت راحتهم وعانوا النكسات الخطيرة التي تظهر آثارها في قلقهم المتزايد، وخوفهم من مستقبلهم بعد أن فقدوا بدورهم شخصيتهم، وغدوا آلات خاضعة لطغيان الآليات التي آمنوا بها وكفروا بغيرها وللحصول على السعادة الأبدية كما يدعون أمام هذه المواقف اليائسة، نرى أن على المسلمين أن لا يفقدوا إيمانهم بالله وأن يعتزوا بدينهم وتاريخهم وثقافتهم وحضارتهم وتراثهم، في الوقت الذي يتفتحون فيه على العالم الحديث يستفيدون من منجزاته، ويعملون للإسهام مرة أخرى بالحظ الوافر في تطوره وتقدمه، ولا يتم ذلك إلا إذا اعتنوا بثقافتهم الإسلامية، فأحيوها وبعثوها، ونظروا فيها على ضوء ما تم من اتساع العلم الحديث، وما حصل من نمو في ثقافة هذا العصر وفي تقنياته، وما عرفته المجتمعات من تغير روح التضحية، والشعور بالقيم الإسلامية في الأجيال الصاعدة، قصد تقويتها، لتعتد بنفسها، ولتبقي ملتصقة بثقافتها، وتسير في طريق النمو والازدهار، متجنبة مجالات اليأس والقنوط التي عرفها الإنسان في المجتمعات التى تدعي التطور، عندما آمنت بالماديات، وكفرت بالقيم الروحية التي لا حياة ولا مستقبل بدونها.

ما هو العمل في المستقبل إذن لإنهاء حالة الشكوى من أن الناس لا يعرفوننا، ويجهلون فكرنا، ويتعصبون ضد ثقافتنا، ويفترون عليها الافتراءات والأكاذيب المضللة.

علينا ونحن نتحفز للوثبة الجديدة نحو مستقبل أفضل أن نومن بالثقافة التي تفيد مجتمعنا ولا تتعارض مع اعتقاداته وتقاليده كما تفيد كل المجتمعات الإنسانية.

لقد كانت ثقافتنا ثقافة قوية البنيان، متينة الدعائم والأركان، هدفت إلى خلق إنسان جديد، يفكر، ويعمل بحزم، ينظر إلى الكون والحياة بعقل، نظر ثاقب وفكر متأمل بحاث.

أساس هذه الثقافة نسق يشمل جميع شعب الحياة الإنسانية في الفكر والعمل والعقل والعلم والروح والمادة.

ولما كانت الثقافة مجموعة القيم الروحية، والمبادئ الخلقية، والتقاليد والعادات الاجتماعية التي يتلقاها الفرد في مجتمعه، ويعيش بها وفيها فإن طابعها المميز هو ما حدد التزامات الإنسان المسلم ودفع المسلمين إلى الأمام بما اشتمل عليه من مبادئ سامية وقيم صالحة وتوجيهات رشيدة.

لذلك صار من واجبنا اليوم العمل على إحياء التراث العميق العريض الوعي، بتقوية ثقافتنا وتنميتها، لحثها على التمسك بشخصيتها، والاعتزاز بها، لتسلم من الضياع والتفتت، وللحيلولة بينها وبين انتشار مظاهر ومحاولات التخريب المدمرة (بعدما أصابها بطش الغزو الفكري الغربي الهادف إلى تدمير المجتمع الإسلامي وتفريغه من مضامينه الثقافية الأصيلة).

برجوعنا إلى منابع ثقافتنا الأصيلة نستطيع تحقيق هويتنا الأصيلة، على أسس من التصور الإسلامي للحقائق والأشياء ومن منطلق المفهوم الواعي للإسلام المتفتح الذي يستوعب بقوة وصلابة وجدارة كل تحديات المعاصرة، تلك أجدى وسيلة وأنفع طريقة للنجاة من خطر التفكك والتصدع، لأن فيها التحقيق الأكبر للذات، والخروج من موقع الدفاع الضعيف أمام الثقافات السائدة إلى موقف المبادأة والمبادرة القوي، والإشعاع الروحي والمادي الذي نحن في أشد الحاجة إليه.

إن الثقافة الإسلامية لا تتنافى مطلقا مع الثقافات الحديثة بل تنميها وتثريها وتطورها، وتوجهها الوجهة الصالحة، وبها يثمر الإنسان المسلم مرة أخرى، وتورق حضارته وتنوع فكره فينزع نحو الحق والخير والجمال والكمال والفعالية، ويحقق كل أبعاده من جديد.

الحوار

نأمل أن تقوم مبادرة الأخوة بين البشر كلهم بدرو الإرادة الطيبة، لتوجه المجتمعات نحو دروب جديدة من الإخاء والتعاطف، في هذا العصر الذي يمتاز بتقدم تقني كبير في شؤون النقل والاتصالات، والإعلام والطب والعلوم والوراثة، وكل هذا يحدث تحويلا كبيرا في حياتنا، فهذا التقدم والتطوير يمس الإنسان في ذاته، خصوصا في علوم الوراثة، وهو ما يهدد كل الحياة البشرية في صلبها وحقيقتها، ويؤثر في كل العلاقات البشرية، وهو ما يجعل كلامنا قويا متواضعا؛ وبهذا يجب الدفاع عن القيم الإنسانية الكبرى، وعن كرامة الشخص البشري والعدالة الاجتماعية والحرية التي هي أيضا قيم كبرى لابد منها بحياة إنسانية كريمة. وللدفاع عن هذه القيم وتوطيدها

يلزم أن يكون هناك حوار منفتح يفضي إلى التعاون في كل المجالات المذكورة وعلى مختلف الأصعدة المحلية والإقليمية والوطنية والعلمية، فالحوار ضرورة حتمية، وواجب إنساني، وشرط مؤكد للتعايش السلمي بين البشر؛ وهو يتطلب الالتزام بالأهداف التي تعزز القيم والمبادر الإنسانية وذلك ما يساهم بدرجة كبيرة قي التقارب ين الشعوب والأمم وفي إزالة الحواجز المتراكمة بينها.

ويتطلب ذلك التكثير من الاتصالات، تحقيقا للمصلحة الإنسانية المتبادلة، وتعميقا لتعاون الدول، وفي هذا الاتجاه الفكري والثقافي والحيوي لا ينبغي لهذا الحوار أن تطغى عليه النزعة التاريخية، ليبقى محصورا في معالجة القضايا التي لا تمت إلى روح العصر بصلة بذلك. ويجب أن يكون هذا الحوار مهتما بالموضوعات المصيرية التي تؤرق ضمير الإنسانية، ويبحث لها عن حلول وتسويات مستلهمة من روح الحضارات والثقافات.

ويجب أن يتم الحرص على أن يقوم الحوار بين الحضارات والثقافات على قاعدة الاحترام المتبادل بين المنتسبين لهذه الثقافات والمنتمين لهذه الحضارات جميعا.

الفكر

. ما علاقة المثقف بالحداثة؟

المثقف متعدد الأشكال، ومختلف الطروحات، وهويته ربما تتسع من أجل بناء التعدد والاختلاف، لضمان بناء الذات العربية بين الحس والروح، والهواية والاحتراف الباطن والظاهر، والحداثة والأصالة والتأسيس والهدم؛ وكل ذلك دون فكرة مسبقة أو فلسفة مفروضة، ليستخرج الأشكال الثقافية

الأولى، ثم يستنطقها ويتحقق منها ويخضعها إلى التدقيق. وإن الاكتفاء بالاستيراد وبنماذج نصية مطلقة، ونسبية نابعة من المركز يطرح علينا مجددا الأسئلة المتفتحة التي طرحها بعض المفكرين، من تلك التي قد تأتي من كل النظريات الحداثية الغربية.

فالتحولات التي يعرفها المجتمع العربي اليوم هي على العموم تكون نقطة انشقاق بين صانعي القرارات والمفكرين العرب، لهذا فالمثقف العربي اليوم يعيش في غربة قاهرة متمزقا مأساويا، يرى سيطرة اللاعقلي واللاعلمي اللذين أصبحا وكأنهما يكونان حقيقة الحضارة العربية. الأصولية هي التزمت والإكراه في الدين، والغلو والتعصب والتطرف، وهي الفهم الخاطئ للدين والمتطرف لرسالته وجوهره، ونقصد بها الانحراف عن الأصول، وليس تمسكا بها أو إخلاصا لها، على عكس ما توحي به الكلمة.

. ما هي سمات المثقف ؟

المبادئ الأخلاقية "الدينية" هي كافية لتنظيم سلوك الفرد وهدايته طول حياته، ويجب التفريق بين المعنيين الإيجابي والسلبي للأصولية.

هل يحق لنا التعرف على تجربة أوروبا في مجال الإصلاح الديني أو التنوير؟ أم أن ذلك الأمر لا يعنينا وفيه إساءة لنا؟ التعرف على تجاوب الآخرين لا يعني الإيمان بها أو تقليدهم، وليس فيها أي ضور؛ والمعرفة أحسن من الجهل، والمقارنة والمعرفة والنظر تجنب الإنسان الوقوع في الهفوات التي وقع فيها الآخرون. والحضارة الغربية رغم كل نواقصها وتطرفها في الاتجاه الإلحادي المادي أو الشهواني الاستهلاكي ليست شريكالها. ولما أصبحت

سائدة في العالم كله، فإننا لم نعد قادرين على تجاهلها، ولنأخذ منها إيجابياتها ونترك سلبياتها.

فالحداثة الأوروبية ظاهرة كونية شاملة لا يفلت منها أحد، وليست لنا صورة حقيقية عن العقلية الغربية، فكيف العمل مع حضارة نجهل منطقها، ويرفض الأصوليون التعرف عليها بحجة أنها إلحادية شيطانية. نحن في حاجة إلى تنوير فكري قوي للقيام بهذا التعرف، وللخروج من الورطة التي نتخبط فيها الآن وهنا تأتي قضية الاستغراب، وهي من الغرب لا من الغرابة وتقابل الاستراق الذي هو العلم.

ثقافتنا وهويتنا الوطنية

لا تنتصر الشعوب ولا تزول إلا إذا فقدت الإرادة في الحياة، أو اجتاحها من الخطوب والمصائب الطبيعية ما لا قدرة لها على تحمله؛ فإذا طغت الثقافة على الثقافة بشكل أو بآخر فان الأمة الضعيفة تنهزم إذا ضاعت ثوابتها وأصولها، ومعها هويتها لكن الثقافة الوطنية مرتبطة بإرادة وصمود المقاومة.

فالثقافة والهوية الوطنية لا تزولان ولا تندثران، فهما تختزلان كينونة وتاريخ الأمة؛ وكل شيء مهما كان ضئيلا فهو في خدمة تطلعات واحتياجات الشعب ومشروعه الوطني، وهذا هو سر استمراره عبر التاريخ، لأن الشعوب لا تموت بالرغم من تعاقب المحن.

فالثقافة والهوية هو ما يجب أن يتمسك به الشعب، ويدافع عنه بكل ما يملكه من قوة وعزم؛ فلا نبقى إما ناقلين للفكر الغربي، أو ناشرين للفكر القديم، فلا نعود متلائمين مع الزمن، الجديد. والفكر الذي نريده يجب أن

يعكس هموم الإنسان؛ والمشكلة بمختلف عناصرها وأبعادها تتجلى في صناعة الأفضل والأجمل، لبناء إنسان جديد، همه التفكير في الواقع، والإعداد للمستقبل، واستثمار التفكير الحر، والتعامل مع التحولات التاريخية بالمحافظة على التراث دون السقوط في الماضوية. وهكذا يتميز مشروعنا الحضاري الجديد القائم على الركائز التالية: تكامل أصناف المعرفة، الاتجاه إلى الابتكار والخلق والابداع، والقطيعة مع كل ما يخالف ذلك، ولا يقوم بهذا إلا المثقف الواعي المجاهد الملتزم، الذي يتحمل مسؤولياته ليتلاءم مع المرحلة الجديدة وحياة الأمة، ويجتهد لخلق مجتمع متوازن عادل ومبدع.

فهو منطلع دائما إلى تأسيس عالم جديد، وإحداث علاقات وقيم جديدة. ويبدو الكلام عن الثقافة الإسلامية من أهم واجبات المرحلة، دفعا بالفكر الإسلامي في اتجاه التفكير الجدي والمتواصل بالمستقبل الإسلامي. التفكير في مواجهة كل أشكال اختراق الإبداع الحضاري.

إذ لا يعقل أن نتحدث عن الحفاظ عن الهوية، دون فكر إبداعي مبتكر نبتغي به إيجاد البديل الحضاري. ولدخول ميدان المنافسة التكنولوجية والاقتصادية والعلمية عامة يجب تجنب عقدة الفصام الحاد الموجود بين التفكير السياسي والتفكير الثقافي خلال القرن الحادي والعشرين . وعلى والفكر الإسلامي أن يبحث عن سر التخلف والانحطاط وعن سر إعاقة كل مشروع نهوض.

يجب لذلك الحد من هجرة الأدمغة، وتوفير المستوى التربوي اللائق، وتحقيق متطلبات الإبداع والابتكار والعمل الجدي. فكيف يجب أن تكون العلاقة بين الثقافة الإسلامية والثقافة الكونية؟.

لابد من تحديد الأولويات الضرورية لبناء ثقافة الإبداع والشراكة الحضارية، وهو ما يعني أن نستغله للاشتغال بقضايا الأمة التي هي قضايا الحرية والاستقلال والعدل والديمقراطية وحقوق الإنسان.

يجب بناء مشروع ثقافي تجديدي تغييري، ولذلك فنحن ملزمون باستشراف، المستقبل والتشبث بعصرنا، وعدم التفريط في وجودنا بداخله. نريد ثقافة مغربية منفتحة على غيرها، بعيدة عن التحجر والانغلاق، فاعلة حية مؤثرة.

فقد تعامل المغرب في تاريخه الطويل مع شعوب عدة كالفينيقيين والرومانيين، وتأثر بثقافتهما وحضارتهما، وكانت له معهما علاقات شاملة تشمل الفلاحة والتجارة في مراكز حضارية عديدة، وكان لكل لذلك تأثير واضح على الفكر المغربي بقيت آثره حتى اليوم.

حوار الحضارات والثقافات

تنير انتباهنا اليوم كثير من الجهات، والمغالطات، والأكاذيب والأوهام التي تسمم العلاقات بين الحضارات والثقافات، كما يتولد عنها مجموعة مواقف عدوانية بدأت تغزو المجتمعات والشعوب وترجعها إلى الخصومات والحروب. وهذا العلم والتواصل والعولمة والحوار، من أجل التعارف، وإحلال السلام محل التنافر والتباعد. لقد جربت الإنسانية رغما عن ذلك أن الحوار البناء لإقرار السلام هو الحل الوحيد الكفيل بالتقريب بين الديانات والمجتمعات، لإبعاد شبح الحرب المميتة التي لا تبقي ولا تذر، إنه الحل الأمثل لمشاكل وقضايا اليوم في عصر الإقصاء والتهميش، الذي تبرز فيه روح التعصب والاعتزاز بالاختلاف العرقي والعملي والتاريخي، وعدم اعتبار الغير

واحترامه لأنه مغاير، في العادات والتقاليد والتنظيم ولذلك فهو في مرتبة دنيا لا يستحق الاعتبار والاحترام من أجل هذا تكون الحاجة اليوم ماسة إلى إعادة النظر في دلالات بعض المفاهيم، كمفاهيم الثقافة والحضارة والهوية والمخالفة، لإعطائها معاني ومضامين جديدة حديثة، تنزع عنها صفة الكلي العام، وتحصرها في نسبية منطقية معقولة إنسانية .

ولهذا نحتاج إلى لقاءات متكررة، للتقارب والتواصل ومن هنا نحضر اليوم لتعميق البحث في قضايا العصر ومشاغله وإشكالاته، وعلى رأسها الصراع بين الحضارات، وبذلك نبني مستقبل الإنسانية التي تنتظرنا، وتجنبنا ويلات عدم التفاهم والحروب التي عانت منها في الماضي ومازالت تئن تحت وطأتها اليوم.

إن الحكمة تقتضي العمل الدؤوب الصادق للتقريب بين الناس، وجعل قيد للدغمائيات القديمة المتهالكة الجاهلة التي طالما سممت الخلايا وحالت دون التفاهم والسلام. والثقافة الحديثة من واجبها ومن شروطها الأولى أن تعمل على التواصل المستمر، لتحقيق إنسانية الإنسان، بأوسع مضامينها وأصدقها التي تجعل الإنسان لا يضيق بالآخر ولا يرفضه، لأنه يعرفه ويحترم وجوده وحريته وهويته.

أن الشرط الظاهر لهذا يكمن في التقارب والتعارف والتسامح، ولا يكون ذلك إلا باستمرار البحث الجاد، وتعميق النظر في كبريات القضايا والإشكاليات إذا ما هيئت الظروف والوسائل اللازمة التابعة لذلك.

مصر معلمة العالم العربي

منذ قرنين كاملين أرسلت مصر العديد من شبانها إلى أوروبا للتعلم والتكوين، ومنذ عادوا وهم يجاهدون ويجتهدون حتى قامت بها حركة علمية وأدبية جديدة غير مسبوقة.

وقد قامت مطابعها بنشر التراث العربي الإسلامي بأكمله، كما صدرت بها جرائد ومجلات قرأها الجميع، وتعلم منها اللغة العربية في صورتها الجديدة، على يد كتاب جدد لهم ثقافة حديثة لم يألفها الناس من قبل، كما كانت مصر رائدة في الميدان الفني والغنائي والموسيقى، وشاهد جميع الناس الأفلام التي بقيت تصدرها منذ بداية القرن الماضي، وأعجبوا بحركتها وبأصالتها، وبكبار ممثليها وممثلاتها كما كانوا معجبين بكبار كتابها وبما أنتجوه من شعر وفن وقصة وعلم. ولهذه الأسباب لا يستطيع أحد اليوم أن ينفي دورها الرائد فعلا في يقظة العرب والمسلمين. الذين تزعمتهم عن جدارة واستحقاق لزمن طويل. فإلى جانب نشر التراث العربي القديم، وإنشاء أدب وفكر جديد اجتهدوا كذلك في ترجمة علوم الأدب الغربية إلى اللغة العربية، قصد إغنائها وجعلها تقف في مصاف اللغة الأخرى.

مناهج التكوين الفكري

لا يصل المسلمون إلى أهدافهم الثقافية والحضارية بالعنف الذي عده بعضهم وسيلة مشروعة للتغيير، لابد من تفضيل العمل السلمي؛ ونبذ العنف والإرهاب؛ لابد من الدفاع عن صورة الإسلام الحقيقي التي شوهتها أعمال العنف والإرهاب.

لا مناص من الاعتراف بأن نمو الخطر الذي يمثله تيار العنف في جسم الصحوة الإسلامية يعد قضية بالغة الأهمية لا ينبغي تجاهلها أو التقليل من شأنها. إن السبب الداخلي الذاتى يتمثل في بعض مناهج التكوين الفكري، والثقافة العقائدية التي تتبناها كثير من الجماعات. إن هذه المناهج تمهد الأرضية الصالحة لنمو بذور الاتجاه نحو العنف لدى فئات عديدة من الشباب.

والدعاة المتحمسون من غير العلماء الحقيقيين هم الذين يقومون بهذا العمل التدميري لأنهم يتبنون خطابا دينيا أساسه التهييج والإثارة.

الأمازيغية هي لغة المغاربة الأولين

يتكلم بها اليوم عدد كبير من المواطنين في كل أنحاء المغرب؛ وقد حظيت في أيامنا هذه باهتمام كبير وأنشأت لها أكاديمية خاصة تعتني بشؤونه.ا كما أن الدستور الجديد اعترف بها وجعل لها وجودا رسميا لم يكن لها في الدساتير السابقة. وقد كنا نأمل أن تهيأ كل الظروف اللازمة ليزيد انتشارها ولتعم الوطن كله، لكن الذين وكل إليهم هذا الأمر لم يحسنوا في نظرنا القيام به على خير واجب وأكمله، ذلك أنهم باتخاذ قرار رسمها بحروف " تيفناغ " أبعدوها عن مجال التداول العام، وحصروها في نخبة قليلة من المجتمع، وهذا ما كان ليكون لو أنهم قرروا كتابتها بأحرف أختها العربية،التي كانت كتبت بها خلال قرون طويلة، وهذه المسألة بصفتها قضية وطنية ما كان أمرها ليترك لجماعة المتعصبين الذين اتخذوا هذا القرار، والذي نعتبر أنه إساءة إلى هذه اللغة كثيرا، والذي كان يجب أن

يعرض على ممثلي الأمة في البرلمان، وعلى علمائها ومثقفيها الذين لهم كما لغيرهم الحق في النظر في هذا الشأن.

لو كتبت الأمازيغية بالأحرف العربية كانت ستشيع في الحين في كل الأوساط، ويقبل عليها الدارسون وعامة الناس. وما زلنا حتى اليوم نطالب بحق جميع المواطنين، أن يشاركوا في اتخاذ كل القرارات التي تهمهم وعلى رأسهم العلماء الأمازيغيون، لكنهم أبعدوا عنها إبعادا أخذت مساوئها تظهر اليوم للجميع، وإذا شاء أصحاب التيفيناغ للغة الأمازيغية أن تنتشر وتهم البلاد كلها ويعرفها المواطنون جميعا بدون استثناء كتبوها بالأحرف العربية التي تحملها إلى جميع الجهات، وتؤصلها تأصيلا لتصير به فعلا لغة وطنية يتكلمها جميع المواطنين، لا لغة نخبة تختاره لنفسها الكتابة المعقدة ليستبدوا بها ويمنعوها عن جميع المواطنين. وقد كان هذا رأينا، لكن الأمور أسندت إلى غير أهلها، فعبثوا بها كما زينت لهم أوهامهم وجهلهم بالحقائق التي لا تخضع لافتراضات الكذبة.

اللهجة الدارجة

تعالت اليوم أصوات لبعض الجاهلين الذين أصبحوا ينادون بجعل اللهجة الدارجة هي اللغة الرسمية للمغرب، تدرسها المدرسة وتعلمها مكان اللغة الفصحى.

وهؤلاء لا يدرون الصعوبات العلمية والثقافية والحضارية التي ستنشأ عن ذلك، فهم لا يعرفون أوولا أي لهجة سترقى إلى المنزلة الأولى، علما بأن لهجاتنا في المغرب متعددة؛ فماذا سنختار الفاسية؟ أم المراكشية؟ أم التطوانية؟ أم الوجدية؟ لأن كل هذه اللهجات وغيرها متساوية، وإن كانت

تختلف عن بعضها اختلافا لا يلاحظه ولا يعرفه إلا الناطقون بها وهذه الاختلافات عميقة تتطلب من كل المغاربة أن يتركوا لهجاتهم ليتعلموا اللهجة المختارة، وهو شيء غير طبيعي لما ينشأ عنه من اختلافات اجتماعية وسياسية، قد تفضي إلى ما لا تحمد عقباه. ثم إن من يقول بهذا يجهل أن أهل الاختصاص يؤكدون أن للغة دورا في المجتمع، فهي ديوان من يتكلم بها وسجل تاريخهم وحياتهم منذ كانوا، أضف إلى ذلك أن الذين يقولون هذا القول الجاهل سيفصلوننا فصل تاما عن العالم العربي، إذا ما قامت كل ناحية بنفس الفعل بحيث نتحول إلى جهات منفصلة بعضها عن البعض لأن لغة كل قطر ستبتعد عن بعضها وستصبح أجنبية عن غيرها.

وهكذا فعامل الاتفاق والالتحام والقوة سيصبح عامل افتراق وانفصال وتباعد، في عصرنا الذي يبحث فيه الناس عن التقارب والاتصال، وتعتني فيه الدول الكبرى بلغاتها وثقافتها بقوة تعليمها وجامعاتها، والمراكز الثقافية التي تنشئها في الداخل والخارج لتعلم لغتها الموحدة ولتشيعها وتنشرها بكل الوسائل ليقبل الناس على معرفتها والنطق بها.

فكيف سوف تكون حالتنا لو كسرنا وحدة العالم العربي كله لينطق بلهجاته الخاصة؟ وماذا سوف يكون مصيرنا في المغرب لو أخذنا لهجة من جهة ما وصرنا نشجعها على غيرها من اللهجات حتى تصبح لغة وطنية يجبر غير الناطق بها على استعمالها وتفضيلها على لهجتهم.

إننا طالما شجعنا معرفة اللغات الأجنبية، للاعتماد عليها لدخول عالم العولمة كما يفعل غيرنا؛ إلا أن الفرق بيننا وبين غيرنا هو آن الآخرين يدرسون اللغات الأجنبية للاستفادة منها دون تفريط في لغاتهم الأصلية التي يعملون في نفس الوقت على إغنائها وتوسيعها لتصبح قادرة على استيعاب

العالم الحديث وكل أنواع المعرفة التي يزخر بها، وهذا ما لم تقم به النخبة الرائدة عندنا، فقد درست اللغة الأجنبية وتعمقت فيها، ثم بقيت عند ذلك ناسية شعبها، مهملة ثقافتها، مهمشة لمن انتدبوها للاتصال بالعامل الحديث وأنفقوا عليها في دراستها من أموال الضرائب الذي يؤدونها أملا في أن تقوم هذه النخبة الرائدة بدورها العلمي والثقافي والحضاري خير قيام.

لكن هيهات ! إن هذه النخب هربت من الشعب الذي انتدبها وكلفها بالقيام بتنظيم دور التغيير الذي يعيشه؛ إلا أن أحدا لا ينبه إلى الظاهرة الغريبة التي تتمثل في كون إنتاجهم العلمي لا يكترث به من يكتبون بلغتهم، فلا تجد مثلا عند الآخرين في كتبهم المدرسية نصا لهؤلاء الأجانب مختارا، ليقدم لأطفال المدارس على أنه من الكتابة الرفيعة التي يجب الإقتداء بها، ونتيجة لذلك فإن هؤلاء الكتاب سينحصر ذكرهم بموتهم، لأن شعبهم الذي يحق له عادة أن يفخر بهم بعيد عنهم، كما ابتعدوا عنه ونسوه، فحق لهم ضياع ذكرهم وموتهم إلى الأبد.

لا يهتمون بالترجمة في التعليم، بل لا يعرفون ما تستحقه من غاية ولا ينزلونها منزلتها، فلا تدرس إلا بالمستويين الثانوي والعالي لأنهم لا يؤمنون بفائدتها العلمية والثقافية الكبرى، رغم أنها كانت في النظم الأقدم تدرس منذ الثانوي وتعطى فيها شهادات ذات مستوى عال.

فنحن مازلنا نتذكر الشهادات التي كانت يوزعها معهد الدراسات المغربية العليا بالرباط: الشهادة الأولى للمستوى الثانوي الأول، والشهادة المتوسطة للمستوى الثانوي الثاني، وشهادات الدبلوم للمستوى العالي؛ وكأن المسؤولين اليوم يريدون ألاّ يعطوا للتعليم إلا بعدا واحدا، لا تواصل فيه بين عناصره المتعددة، وهذا نراه للأسف بالجامعة، بحيث لا نرى اتصالا علميا بين

كلياتها، بل بين الشعب المختلفة، فليس هناك محاضرون من مختلف التكوينات، يتنقلون بين الكليات العديدة والشعب المختلفة، ليحاضروا طلابا غير طلبتهم، وليعملوا على المشاركة في تكوين واسع الآفاق، يتعدى الاختصاص الضيق المحدود، ويمتد بحكم الفضول العلمي إلى غيره.

إننا نرى أن للترجمة فائدة كبرى في التعليم الحديث، فهي التي تخرجنا من المغلق إلى المنفتح، في الثقافة والأدب والفلك، وهي كفيلة بفتح الأذهان وتمكينها من الخلق والإبداع الذي نحن في أشد الحاجة إليه.

وهناك ظاهرة غريبة لاحضناها في وقتها وهي أن الكليات سواء في جامعة واحدة أو في جامعات مختلفة لا تتعامل فيما بينها علميا ومعرفيا؛ فلم يحدث مرة أن أستاذا من إحدى الكليات ألقى محاضرة في كلية أخرى في موضوع عام يتصل باختصاصه وهذا رغم أننا كنا لا نترك فرصة تمر دون عقد اتفاقيات علمية وثقافية مع الجامعات الأجنبية التي كانت ترسل إلينا كبار أساتذتها للمشاركة في البحث، وإلقاء المحاضرات على طلبتنا في غير ما كان مقررا عليهم، وأكبر مثال على ذلك الاتفاقية التي عقدتها مع جامعة EX الفرنسية فقد استقبلنا عددا وافرا من كبار مدرسيها، وأرسلنا إليهم عددا وافرا كذلك من طلبة الدراسة العليا عندنا، ليتمموا دراستهم بها، وكانوا ينجحون بسهولة مما كان يدل على ارتفاع المستوى في جامعتنا وجدية الدراسة بها، وكان الاتفاق بيننا أولا على تبادل الوثائق الجامعية؛ ولما وصلتني رسالة من عندهم، وقرأت فيها أن ميزانية البحث العلمي عندهم تصل إلى ما يعادل مئات المرات ما عندنا، أحجمت عن إرسال الوثائق إليهم حتى لا تحدث هذه مفاجأة ونتائج غير سارة، ويحضرني هنا الحديث عما وقع حينما كنت أفكر في توسيع فرع الكلية بفاس، وجعله كلية كاملة بجميع

شعبها وفروعها ككلية الآداب بالرباط، فقد أرسلت للوزارة عند منتصف السنة لائحة بالأساتذة الذين كنا سنحتاج إليهم في الدخول المقبل وفي كل التخصصات. وبعد وقت وجيز أخبرتني المصالح الوزارية بأن ذلك غير ممكن، لأن المصالح الثقافية الفرنسية أخبرتنيا بأنها مسؤولة عن تعليم اللغة الفرنسية، وكل المواد العلمية التي تلقن بهذه اللغة في الجامعة، وطلبت من الوزارة، أن أحضر شخصيا في الاجتماع السنوي الذي يعقد لهذا الغرض، وذلك لأدافع عن ملفي بنفسي، فلم تمانع الوزارة في ذلك، وفي يوم الاجتماع الذي كان بكلية العلوم بالرباط، حين الوصول إلى هذه النقطة أخذ الكلمة رئيس اللجنة الفرنسية، وتأسف لعدم الاستجابة للمطالب الواردة في لائحتي المقدمة لهم. فأخذت الكلمة، وبعد شكره على حسن نيته سألته: هل درس اللغة الإسبانية أو الإنجليزية التي يقدمها في الجامعة أساتذة فرنسيون يتقنون هذه اللغات؟ وهو نفسه الدرس الذي سيقدمه أستاذ إسباني أو انجليزي أو غيرهما؟ فسكت المسؤول ثم قال إنه لا يستطيع الجواب على هذا السؤال، لأنه ليس من رجال التعليم. وعند ذاك أخذت أشرح له أهمية تداخل العلم الثقافي والتكوين في هذه المسألة، إذ الأستاذ الفرنسي الذي يدرس الإسبانية مثلا يحيل في ذلك على تكوينه الفرنسي، وثقافته الخاصة، وتوجيهاته وتاريخه وحضارته. ولذلك فتنازل الفرنسيين عن هذه المهمة لغيرهم هو تنازل يبعدهم عن الميدان، الذي سيحتله بكل سهولة من سيعوضهم فيه. وبعد مناقشات قليلة تعرف المسؤول الفرنسي على وجهة نظرنا ووعد بأنه سيفي بكل مطالبنا.

والحقيقة في هذا كله أن تعاملنا مع الإدارة الفرنسية في هذا كان سهلا بالنسبة إلينا، فقد كان يصعب علينا استقدام أساتذة انجليز أو إسبان

أو ألمان، لا تؤطر وجودهم معاهدات كالتي تؤطر العلاقات المغربية الفرنسية. وفعلا اكتملت كلية الآداب بفاس، وازدهرت منذ بداية سبعينات القرن الماضي، فقد تخرجت منها مجموعات قامت بواجبها في الحقل الوطني خير قيام، وما زالت تتابع عملها إلى الآن بنجاح ومهنية عليا.

وأملي اليوم أن تحدث في كل الكليات لجن من ذوي الاختصاصات المتعددة، للنظر باسترسال في الصعوبات التي يعرفها الطلبة أثناء دراستهم، ولتعين على إيجاد حلول لها، كما يلزم أن تهتم بهذا الموضوع أيضا اهتماما خاصا الصحافة التي ربما يكون لصوتها المدوي أثر بالغ يسمعه الجميع.

كل ذلك لتبقى الجامعة مركزا للاكتشاف العلمي المستمر، والعمل الفكري الذي لا ينقطع، لا لتكون مركزا لتوزيع الشهادات التي ليس لها من العلم إلا الاسم، والتي لا تسمن ولا تغني من جموع.

وأعود مرة أخرى فأؤكد بأنه يجب أن يكون للأحزاب وللنقابات، وما أكثرها عندنا، وللصحافة دور مهم يدفع الطلبة إلى التبصر والتعقل، والاستفادة من سن الشباب في العلم والتعلم، بعيدا عن العناد والمعاكسة الذين لا يفضيان بأصحابهما إلى خير.

الجزائر

كنا ونحن صغار نلعب في دروب مدينة فاس وأزقتها، ونحن مازلنا في المدرسة الابتدائية، ولما نجحنا في دخول التعليم الثانوي، وتوزعنا على أقسام عدة، لم ينته الشهر الأول حتى دخل علينا في القسم حارس وقف يقول: التلاميذ الأجانب يرفعون أيديهم، فرفع يديه عدد غير قليل من الحاضرين مما جعلنا نستغرب من ذلك كل الاستغراب. كان معنا تلميذ قال إنه

إنجليزي، وبأنه من حفدة التجار الفاسيين الذين كانت لهم تجارة واسعة في مانشستر بأنجلترا، أما التلاميذ الآخرون الذين رفعوا أيديهم جميعا فكانوا جزائريين، وكنا نعرفهم بأسمائهم الصغيرة، إدريس، محمد، حميد، وغير ذلك... وهنا عرفنا جنسيتهم التي سجلوا بها، وهي جنسية فرنسية، ولقد بقينا معهم كذلك خلال سنوات التعليم الثانوي إلى أن تفرقنا بعد انتهائها، وخلال الكفاح الجزائري للحصول على الاستقلال كنا بجانبهم لأننا اعتبرنا دائما أن استقلال الجزائر تكميل لاستقلالنا في المغرب، وما إن حصلت الجزائر على استقلالها حتى تغيرت الأمور، وكانت حرب الرمال من أجل استرجاع المناطق الشرقية المغربية التي احتلتها فرنسا وضمتها إلى حكمها في الجزائر، والتي رفض محمد الخامس عرض فرنسا لتسليمها له، معتقدا أنه سوف يتوافق مع إخوانه الجزائريين، حيث إن تلك الأراضي عرفت من القديم بأنها مغربية حينما كان حكم الأتراك لا يتعدى هامش البحر، أما عمق الصحراء فكان نصفه الغربي تابعا للمغرب مباشرة، بينما نصفه الشرقي إلى حدود تونس وليبيا، فكانت له علاقة دينية وروحية بالمغرب أيضا. وهكذا ففيما كنا في المغرب ننتظر موقفا عاقلا متبصرا لا تعميه السياسة، إذا بالإخوان في الجزائر يركبون رؤوسهم، ويعبرون عن مواقف الكراهية والتنكر لحقوق المغرب التاريخية، بل يتعدون ذلك إلى تشجيع الثائرين في صحرائنا المغربية، ويتبنون مقولتهم الكاذبة حقدا على المغرب، وكأنهم يرون أن حكم بلادهم لا يتم ولا يستقر إلا بمثل هذه المعاداة والمعاكسات.

وهكذا فالصداقة الأخوية التي ترعرعت في نفوسنا ونحن صبيان صغار السن، والتي كنا حريصين عليها، تحولت في نفوس الجيران إلى كراهية، لا

نرى لها مبررا، وهي التي آلت في السبعينات من القرن الماضي إلى طرد مئات آلاف المغاربة الذين أقاموا بالجزائر مدة طويلة، كانت مليئة بالكد والشغل لصالح هذا البلد، وذلك بعد أن سلبوهم ممتلكاتهم وكل حقوقهم بكيفية تعسفية لا يقرها قانون، ولا تقول بها سياسة، ولو بلغة من الكراهية، مستخدمة في ذلك قوتها البطولية التي كان من الأليق أن تستعملها أولا وقبل كل شيء لفائدة بلدها وشعبها الذي مازال يعيش الفقر والهشاشة، ولإنشاء ما يدفعها إلى الأمام، ويجعلها فعلا بلدا متقدما في طليعة الدول العربية والإفريقية، بحكم ما تقدمه من إعانات، وما تهبه لمن هم في حاجة إلى ذلك، عوض شراء الأسلحة التي تقول عنها إنها عصرية فتاكة ولكنها لا تفيد في الحقيقة بشيء ينمي حاجيات الشعب الذي تتصاعد احتجاجاته، وقد تدفع به إلى الخروج إلى الشارع أو إلى ثورة المصلحة.

هتلر

عرفت الإنسانية في مختلف العصور طغاة متجبرين أهلكوا أعدادا لا تحصى من الأبرياء الذين ذهبوا ضحيتهم لطغيانهم وجبروتهم.

وفى القرن العشرين كان الطاغية الدموي الألماني أكبر مثال لهم، تسبب في حروب قتل فيها عشرات الملايين، رغم أن بلاده كانت في مقدمة الحضارة والعلم، لكنه استطاع بشعوذته البالغة أن يصل إلى الحكم، وأن يجرها إلى المذابح التي يقال إن التاريخ لم يعرف لها مثيلا من قبل. وكان متكبرا يكره بعض الشعوب، كالشعب اليهودي، الذي أراد أن يمحوه من الوجود؛ لكن شعوب أوروبا وأمريكا هبت لنصرته والدفاع عنه، فحمدنا له ذلك. لكن فوجئنا بأن هذا الشعب الضعيف يصبح بعد سنين قليلة تلميذا

مخلصا لمعذبه الطاغية، الذي كان يهدف إلى محوه من الوجود، بالقضاء عليه قضاء المجرم؛ وهذا شعب فلسطين المسكين يعاني معه التعذيب وسفك الدماء، مثل ما عاناه هو من قبل، ويعينه على ذلك الشعوب الأوروبية والأمريكية، بتشجيعه والسكوت عما يقترفه من آثام ومظالم، وفي طليعة هذه الشعوب الولايات المتحدة الأمريكية، التي ذهبت في ذلك حكومتها مسافات بعيدة، حتى يصح أن يقال إنها أشهرت الحرب هي أيضا على الشعب الفلسطيني المسكين، رغم أنها ليست لها عداوة مباشرة معه.

فما كان يقوم به الطاغية هتلر جهرا، بواسطة جيشه المسلح أفضل سلاح، كانت أمريكا تقوم به بواسطة مؤسساتها الكبرى مثل FBI وأختها CIA، حتى يصح أن يقال إسرائيل بواسطة تحكمها في الجهات المسؤولة الأمريكية هي التي تتحكم كما في الولايات المتحدة، فلا يكون إلا ما تريد، كأن أمريكا خاضعة لها تنفد إرادتها وتسير السياسة العالمية بإرادة إسرائيل ومبتغاها.

وقد رأينا صورة تلفزية لرئيس إسرائيل وهو يخطب في الكونغرس الأمريكي بغرفتيه، وممثلو الشعب الأمريكي وقفوا جميعا، يهتفون ويصفقون له بكيفية لم يحظ بها رئيس أمريكي في تاريخ الكونغرس قط، وكلما دار لحديث في هيأة الأمم ومجلس الأمن عن القضية الفلسطينية إلا وقفت فيه أمريكا مع إسرائيل، معلنة حق الفيتو في ذلك، وبهذا يجوز القول بأن أمريكا بقضها وقضيضها وقوتها الكبرى في حرب دائمة غير معلنة على الشعب الفلسطيني المسكين، الذي يحق له أن يفخر بذلك. وعلى غرار أوروبا بقيت الدول الكبرى في العالم مشاركة بفعالة في هذا العدوان المستمر على الشعب

المسكين المجرد من حريته واستقلاله الحقيقي، ويشتكي من المظالم التي يتعرض لها باستمرار .

ومن ذلك ما يفعل سفهاء إسرائيل، الذين يتحدون حدودهم ويترامون على الأراضي الفلسطينية، ويحتلونها ويبنون لأنفسهم بها قرى ومستعمرات، مقتطعين لها من أراضي الشعب الفلسطيني، تحت حماية جيشهم العنيف، وضمانة قضائهم الذي طالما تغنوا بحياده وعدالته، والذي يعرف التاريخ أن هذا العمل هو نفسه الذي كان يقوم به الأمريكيون في القرن الماضي، لطرد سكان البلاد الأصليين وإنشاء مدن جديدة لا تعترف بالحق لأصحابها الأولين. ولو أردنا تتبع مثل هذه الحالات لذكرنا بتفصيل ما فعله موسو ليني في ليبيا وفرنسا في الجزائر قي القرن التاسع عشر.

الفرانكوفونية

تحرص فرنسا الحرص الشديد على إشاعة لغتها وثقافتها وحضارتها وعلمها، وذلك لترتفع منزلتها بين الأمم. وفي عصرنا هذا تتكون التجمعات الكبرى التي تنخرط فيها دول عديدة تتعاون فيما بينها، لأن كل واحدة منها تكون ربما غير قادرة على العيش وحدها وحماية نفسها، من أجل ذلك كانت المجموعة الفرونكوفونية التي قد تصل الخمسين أكثرها من الشعوب الإفريقية، وبعض الشعوب العربية والأسيوية التي تتكتل وتتعاضض وتتقوى والجامع بينها هو أولا استعمال اللغة الفرنسية وتطبيقاتها في كل الميادين الاقتصادية والاجتماعية والعلمية وغيرها؛ مما يعود بالفائدة على كل الأعضاء. وبلدنا المغرب منخرط في هذه المجموعة، واللغة الفرنسية تسود بذلك في حياة العامة والخاصة منذ عهد الاستعمار الذي انتهى في منتصف

القرن الماضي، لكن آثاره لا زالت مستمرة بفضل المدرسة التي تعلم هذه اللغة، وتهيئ التلاميذ ليدرسوا بها العلم في الجامعات والمدارس العليا؛ ونذكر على سبيل الاسترواح أننا لما كنا صغاراً كنا نحب دفاتر هذه اللغة، لأنها عند انتهاء الكتابة فيها وملئها، تباع للبقال الذي يستخدم أوراقها في بيع بعض أنواع الحلوى و"الزريعة"، بينما لا تصلح الدفاتر الأخرى لذلك، لأنها مكتوبة بأحرف العربية التي يحرم استعمالها لنفس الغرض في نظرهم. واليوم لا نرى مانعا في الانتماء إلى الفرونكوفونية، كوسيلة للتجديد والتغيير، قصد الالتحاق بالحضارة الجديدة والعالم المعاصر. رغم أن الانجليزية قد أخذت تشيع وتنتشر بكيفية واسعة لدينا، ولتفتح أمامنا مباشرة جامعات أوروبا وأمريكا كلها؛ فنحن نسير إلى الانغلاق الكامل الذي عرفه مجتمع الأجداد نحو الانفتاح قصد التعرف بدون حدود على ما يجري في العالم الذي نعيش فيه.

الأسر الشريفة بفاس

منذ تأسيس مدينة فاس في مطلع القرن الميلادي التاسع، قصدتها جموع حاشدة من الأمازيغ والصحراويين والعرب والأفارقة. وبذلك كانت عبر التاريخ أرض لقاء تلتقي فيها كل هذه الشعوب الوافدة، التي كونت مجموعة ما يسمى بأهل فاس، ومن بينهم الأسر المنتمية للنسب الشريف، وعلى رأسهم الشرفاء الأدارسة بمختلف طوائفهم حفدة باني المدينة إدريس الثاني وغيرهم، ممن يحملون أسماء عديدة كالشرفاء العلويين، والكتانيين، والطاهريين، والعراقيين، والصقليين، والوزانيين، الذين كان لهم ومازال ذكر واسع في المغرب؛ لتعدد مشايخهم والتفاف الناس حولهم، مما خول لهم منزلة اجتماعية كبرى، تشهد بها الزوايا العديدة التي يقصدها محبوهم،

ويتحلقون بها للذكر والسماع. وقد كان أجدادنا رحمهم الله من بين هؤلاء ومن مقدميهم البارزين الذين يؤَطِّرُونَ جماعات محبي أهل البيت وينظمونهم التنظيم الحسن.

التعليم عامة

لم نشتغل بغير التعليم في حياتنا، ولم نعرف غيره، فقد التحقنا بالتعليم الابتدائي بعد مغادرة الدراسة لمدة سنتين، علَّمنا فيها اللغتين العربية والفرنسية، ثم كانت سنوات التعليم الثانوي بمرحلتيه، وبعدهما التعليم الجامعي الذي دام لمدة أربعين سنة، اجتهدنا خلالها اجتهاداً مستمراً لرفع مستوانا الثقافي، ولجعل عملنا مفيداً لتلامذتنا وطلبتنا.

وقد حققنا نتائج مرضية، شاركنا بها في تحسين مستوى المدرسة المغربية سنة بعد سنة، بهذه الجهود المبذولة، لأنه يرتفع باستمرار واطراد، إيمانا منا بأن مستقبل المغرب يبنى في أقسام الدراسة أولا.

ونقترح اليوم على القائمين بشؤون التعليم في بلادنا ممَّن خلفونا في هذه المهمة النبيلة أن يجعلوا مدرستنا في كل مراحلها بعيدة عن الانغلاق، منفتحة على كل العلوم والآداب ومختلف الفنون، ليكون التلميذ والطالب في المستقبل مهيأين ليعيشا في العالم الحديث المتغير الذي لا يثبت على حال، لأنه يعرف تطورات لا حد لها ولا توقف. ولا يكون هذا إلا بتدريب الطفل المغربي منذ نشأته الأولى على حب المعرفة التي تنمي ذهنه وملكاته، وتجعله مهيأً للحوار والبحث العلمي الصحيح.

إن المدرسة المغربية لن تؤتي أكلها، والنتائج المرجوة منها إلا إذا استجابت لشروط التغير والتطور، وذلك بأن تكون فيها دروس للبحث العلمي

والإبداع والابتكار في برامج خاصة يكون لها قائمون عليها، مختصون فيها، يعرفون كيف يقدمونها للتلاميذ والطلبة في جميع المستويات، ويكون ذلك مثلا:

. بتخصيص جلسات للقراءة خارج المقررات التقليدية وتدريب الناشئة على المناقشة والحوار المفيدين الهادئين.

. بتقديم نصوص مأخوذة مما كتبه المكتشفون المخترعون، يصفون فيها معاناتهم وهم يفكرون ويجتهدون للوصول إلى مبتغاهم، وهذه النصوص كثيرة باللغات الأجنبية لابأس من ترجمة بعضها إلى اللغة العربية، وتقديمها في المدرسة المغربية للكل، قصد الاحتذاء والاقتداء بنموذجها والتفكير على غرارها. إن مدرستنا اليوم لا تخصص لهذا العمل إلا الوقت القصير الذي لا ينفع ولا يجدي، ويوكل لغير المتخصصين في طرق البحث العلمي ووسائل الاهتداء إليه، ولا تستغل كما يجب لتؤتي النتائج المرجوة.

. الاهتمام الكبير بكل الفنون والعلوم كالمسرح والسينما والرسم، لأن لهذه الفنون وغيرها تأثيرا على الفكر الإنساني عامة، تجعل منه فكراً منفتحاً يقبل غيره، ولا يقتصر كما كان الأمر من قبل على الحفظ وتخزين، التي لا تفتأ تضيع ولا تترك وراءها سوى الفراغ.

. وأهمية العلوم الإنسانية في هذا التكوين لا تنكر بالنسبة للجميع ومنهم طلبة العلوم مثلاً، الذين لا يُقتصَر على تكوينهم بالمعرفة العلمية الصِّرفة، بل يجب أن تبقى العلوم الإنسانية حاضرة ولو في الجامعة لتثبيت بقية العلوم المدروسة وتسهيل عملية الإنتاج والإبداع فيما بعد، لأنها مدرسة الخيال والابتكار.

. أما الشعر فتأثيره في الإبداع والابتكار عظيم، وكل المبدعين والمخترعين والمكتشفين هم شعراء أولا لأن خيالهم واسع ورحب، يجعلهم يسيرون بعيداً في تفكيرهم وقياسهم للعمل الفكري عامة، حسب قوانين تفكيرية مضبوطة، لا تزيغ عن طريق التمعن المستمر فيما يريدون الابتكار والاختراع فيه.

. وإذا كانت المكتبة العربية محدودة شيئا ما في هذه الموضوعات، فإن على الوزارة أن تكون لدينا هيئة علمية مختصة في البحث في هذه المواضيع ونقلها إلى اللغة العربية، والعمل على طبعها ونشرها في المدارس والجامعات لتكون بين أيدي الجميع قريبة المتناول سهلة المراجعة.

. ولطالما قيل إن المجتمع العربي لا يقرأ، وما ذلك إلا لأن المدرسة تبقى منحصرة في المقررات الضيقة ولا تمرن التلاميذ على حب القراءة، فهذا أيضا من تخصصاتها التي لا تقوم بها، لذلك وجب على وزارتنا أن تهتم بهذا الموضوع وأن تكون لديها ميزانية خاصة به تنفقها على تأليف كتب عامة، تطبعها وتجعلها في الأسواق في متناول الجميع.

. كما نقترح أن تكون لكل جهة من الجهات في المغرب، جمعيات خاصة للتأليف في المسرح والسينما، والقيام بعروض في المدارس يحضرها كل التلاميذ باستمرار، وتخصص لها أوقات للمناقشة والتفكير.

. بدون هذا، لن تكون مدارسنا في المستوى المرجو مستقبلا، ولن يستطيع مجتمعنا في عمومه أن يتخطى الصعوبات في التطور والتغيير التي يعرفها حاليا لأن كل هذه الأعمال هي من قبيل البحث المجتمعي الذي نحن في أمس الحاجة إليه. فالبحث العلمي الذي نحتاج إليه يجب أن يتناول مشاكلنا، وينظر فيها، ويحاول أن يجد لها حلولا تتفق مع طبيعتنا ومع ما

نريد تحقيقه في المستقبل؛ أما ذلك النوع العلمي العسير الذي نسمع الدول العربية تقوم به وتنفق عليه بسخاء فإنه مازال حتى الآن في غير استطاعتنا وفوق طاقتنا.

الحرب الإلكترونية

تطورت الالكترونيات في العصور الحديثة، واكتسحت حياة الإنسان والمجتمع الحديث اكتساحا شاملا لم يكن يتصور من قبل، ومازالت تتابع مسيرتها حتى طغت على كل شيء، ولم يعد يتصور الإنسان وبيئته دونها. ونسمع من آن لآخر أن شاباً في مكان ما استطاع بحاسوبه الصغير أن يفتح أبواب الخزائن الموصدة، ويتلاعب بما وراءها، محدثاً بذلك خلطا كبيراً وشغباً قوياً في حسابات الأبناك مثلا، و أسرار الجيوش العتيدة التي لم تكن تنتظر أن يستطيع بأي حال من الأحوال الوصول إليها والاطلاع على نظمها؛ ونذكر على سبيل المثال أنه أعلن أن يداً إلكترونية خفية تلاعبت بأسرار هيئة التلفزة الأوروبية العالمية "tv5 "، وأوقفتها لمدة 24 ساعة، قبل أن يستطيع القائمون عليها استرجاعها دون أن يعرفوا مصدر ذلك التوقيف. ويقال مثل هذا عما نشر بأن الطائرات بدون طيار التي تهاجم في العراق وسوريا الجماعات الإرهابية يسيرها جنرال أمريكي، مقره في مدينة لوس أنجلس الأمريكية، على ضفاف بحر المحيط الهادئ؛ فماذا يمكن أن يقع لو أن أحداً تدخل خلسة في هذا العمل، وحرك الآلات ووجهها في وجهات أخرى غير وجهتها التي تراد لها، ستقع حروب لا قدر الله تمحو مدناً من الوجود، لأن الطائرات المدمرة ستسحق مدنا بكاملها، وتقضي على أهلها، قبل أن ينتبهوا ويعرفوا بسرعة فائقة محركها إن هم عرفوه.

نقول هذا ونحن نفكر أيضاً في القنابل الذرية والهدروجينية، وأمثالها من الأسلحة التي إن حركت بغير إذن أهلها، والخطر الذي ستحدثه آنذاك على الإنسانية جمعاء، وعلى الكرة الأرضية بأكملها.

لذلك سيكون مستقبل الإنسانية في خطر عظيم، مادام هناك من يستطيع بواسطة حاسوب صغير فك مفاتيحها، والوصول إلى مخازنها وتحريكها، لإرسالها إلى الجهات التي يريدها دون أن يعلم أصحابها بذلك.

الخيـال

الخيال والإبداع والحوار عناصر يجب ألا تغيب عن المدرسة. وغيابها يجعل التعليم عقيما لا يُكَوّنُ الإنسان وفق الطريقة المبتغاة.

فالمستقبل يتطلب تعليماً حياً منفتحاً على العالم كله، والأستاذ يجب أن لا يكون المتكلمَ الوحيد في القسم، وإنما عليه أن يمرن تلامذته على الحوار البناء، وتبادل الرأي الذي يجعلهم مشاركين وفاعلين، لا مجرد متلقين لقواعد يحفظونها ثم تنسى فيما بعد.

وأعود مرة أخرى إلى الحديث عن العلوم الإنسانية وأهميتها في التكوين، فهي التي تفتح الأذهان وتتيح للتلاميذ أن يكون لهم تكوين واسع الآفاق، ينفتح على العالم كله ويعطي فرصة لمعرفة الغير وثقافته. والإبداع لا يكون بدون خيال، لأنه الوسيلة لكي يتعدى الإنسان واقعه، ويتجاوزه إلى ارتياد آفاق واسعة المدى لم يألفها الجميع، وفيها جديد لمن يستطيع الوصول إليها بفكره الخاص وعمله المستمر، رغبة منه في تحقيق ما لم يتحقق بعد ولم يصله غيره.

إن عالم المستقبل مجهول لدينا في عمومه حتى الآن، فكيف نستعد لولوجه بصورة ثابتة ؟ بالتأكد إنما يكون ذلك بتدريب عقولنا، وتمرين أذهاننا على تجاوز المراحل، والاستعداد للمفاجآت التي ستحصل، فالمستقبل دائما يكون حافلاً بالمتغيرات.

وأعود للحديث عن الشعر مرة أخرى، لأن حقيقته هي الخيال الذي يسير بصاحبه نحو عالم بعيد عن الانغلاق والانسداد، فالإنسان إذا ما تمرّن على النظر فيه فإنه لا يستغرب التغيرات التي تقع، والتجاوزات التي يسير الإنسان نحوها لا محالة، وبخطى حثيثة تغَيّر عالمه الذي اعتاد العيش فيه، فهو لا يبقى في مهب الريح، إن كان يستطيع الصمود أمام الإعصارات التغييرية التي تعصف به و بمألوفه كل حين.

إن القدر لا يرحم الجامدين الهامدين فكرياً، وإنما يجرفهم كما تجرف السيول كل من يقف في طريقها.

الزيتوني – نتنياهو – أمريكا

أمر هذا الرجل يعجب له الإنسان كل العجب، فقد ولد في بداية القرن الماضي في زرهون في الشرق حيث، عاش عدة سنوات ثم رجع للقرويين لإكمال دراسته. وبعد حصوله على شهادة العَالِمِيّةِ، صار يقوم بدروس في المساجد، حيث تعقد حوله حلقات من العامة الذين يعجبون به ويتعلقون بدروسه، حيث يحضرونها باستمرار. ثم صاروا يتعلقون بشخصه ويرعونه رعاية خاصة، ينفقون عليه من أموالهم، ولا يبخلون عليه بشيء. وبذلك أَمِرَ أَمْرُهُ بمدينة فاس، فصار يمشي في شوارعها الضيقة، مصحوباً بحاشيته التي توقف الناس أحياناً ليمر هو قبل غيره.

وقد شاع ذكره وانتشر، وصار حديث الناس لما يروجونه عنه من أقوال انتقادية للمجتمع كله، وللحركة الوطنية على الخصوص، التي كانت له معها عداوة بل كراهية.

كان يسكن أولا بحي البليدة، تم انتقل لحي السياج ليسكن داراً كبيرة اشتراها له بعض أصحابه الذين كانوا يتنازلون عن كل ما لديهم، وينفقون على شيخهم هذا. وقد حكي أنه كان يعيش في منزله مع مجموعة من نساء أصحابه، وبعض رجالهم الذين يتعاملون معه كالأمير؛ فينزل كل عشية بعد صلاة العصر لإلقاء درسه عليهم، ويقابلونه آنذاك بتحيات و تهليلات لم يكن يرى مثلها إلا في القصر الملكي.

وحينما أطلق لسانه في كل أَحَدٍ، وتجاوز الحدود المعقولة بمهاجمته لأولي الأمر كلهم، وبما كان يشاع عما يجري بمنزله، هاجمته الشرطة، فأبدى أصحابه مقاومة خاصة، أشهروا فيها سيوفهم، مما اضطر رجال الشرطة لاستعمال أسلحتهم ضد هذه المقاومة، وإخلاء المنزل من كل من كان فيه من ذكور وإناث، وأَخْذِه إلى السجن، حيث بقي إلى أن وافته المنية. وبذلك انتهى أمره وشتتت جموع أصحابه، ونسي إلى الأبد بعدما كون ظاهرة غريبة لشخص يجلب جموع الناس إليه، ويتحكم بكيفية شديدة في نفوسهم وأسرهم وأموالهم؛ وهي ظاهرة شديدة الغرابة في مغربنا الحديث، شهدتها مدينة فاس في القرن الماضي، وجعلت أهلها يتناولون حديثها ويتذكرون صاحبها وجاذبيته الإنسانية بشكل منقطع النظير حتى اليوم، رغم أنه مر عليها أكثر من أربعين سنة.

ونذكر بهذه المناسبة شخصية أخرى، ويتعلق الأمر برئيس وزارة إسرائيل المدعو نتنياهو، والمعروف بقساوته وحبه للقتل والتدمير، فهو دائما

يأمر الجيش الإسرائيلي بالهجوم على الشعب الفلسطيني الضعيف، فيقتل من يشاء، ويدمر ما يشاء دون حسيب أو رقيب؛ وآخر مثال على هذا هو مهاجمته مرة أخرى لغزة، وقتله لألفي إنسان، وجرحه لعشرات الآلاف كذلك دون اعتبار للرأي العام العالمي، ودون ضمير إنساني يجعله يتراجع عن أعمال التدمير والإفساد الكبرى التي يقوم بها، فيشبه حين ذلك الزعيم النازي الألماني الدموي "هتلر" الذي اعتدى على الشعب اليهودي وأراد إبادته دون أن يفلح في ذلك. ويقال إن سكوت أمريكا على أفعاله هو الذي يشجعه ويحفزه دائما للقيام بأعماله الإرهابية ضد الفلسطينيين، وذلك نظراً لنفوذه وقوة مساندیه في أمريكا، وهو ما يجعله يطغى على حكومتها ويسخرها لمصالحه، وقد رأيناه في إحدى زياراته لواشنطن يخطب في الكونغرس وأعضاؤه واقفون يصفقون له ويهتفون له، في استقبال حار لم يكن مثله لرئيس الولايات المتحدة نفسها. وبهذا يصنف نتنياهو رئيس إسرائيل في صف الطغاة المفسدين الذين يسيئون إلى الإنسانية جمعاء، ولن ينسى لهم التاريخ ذلك.

أما "أمريكا" فلها نصيبها الكبير في الموضوع، لأن مساندتها لهذا الطاغية لا تعرف حدا، بحجة حماية الشعب اليهودي من العرب، بينما هو الأقوى والأكثر استعدادا لإبادة غيره، بما يملكه من قوة ساحقة، وقنبلة ذرية ماحقة. ولهذا قال بعضهم إن الشعب الفلسطيني المسكين يحق له أن يفتخر بأن أمريكا " العظيمة " تشهر عليه الحرب بكيفية ملتوية عبر إسرائيل، التي تقدم لها الأسلحة والإعانات؛ ولا تكاد تُعْرَضُ بعض مشاكل الفلسطينيين على هيئة الأمم المتحدة إلا وتجد أمريكا تجتهد لمنعها وتوقيفها، "فالفيتو" السياسي حاضر لطردها والمنع من التداول فيها.

وإذا كان هتلر الدموي قد قام بعمله رسميا باسم ألمانيا، فإن أمريكا اليوم تقوم بأعمال مفسدة، وتكلف بها بعض المؤسسات التي أحدثتها، كمؤسسة الاستخبارات الأمريكية التي لها من الإمكانيات ما يجعلها أقوى من كثير من الدول في عالم اليوم، تنفذ سياسة إفساد وخراب، أحيانا بتَسَترٍ وإخفاء لا ينتبه إليه إلا العارفون الفاهمون لدورها في عالم اليوم، تقوم بمعزل عن الحكومة الأمريكية الرسمية التي تدعو دائما إلى الديمقراطية والسلام، وهي غير بريئة في الحقيقة من الشغب الدولي الذي يحصل في عالم اليوم، وخصوصا في مساندتها اللامشروطة لإسرائيل، وهي تسكت عن كل الجرائم التي ترتكبها كل يوم هذه الحكومة، لأنها تعرف أن انتقادات العالم لا قيمة لها إذا ما ساندتها أمريكا وسكتت عن أعمالها الفظيعة، حتى أصبح الوضع كأن حكومة إسرائيل هي المتحكمة في الحكومة الأمريكية ومسؤوليها الضعفاء. وأمريكا التي تتظاهر بالقول بأنها تدعم الدولة الفلسطينية، بل وتعترف بها لم يحضر ممثلوها في حفل رفع العلم الفلسطيني بهيئة الأمم المتحدة، وذلك ما يؤكد حقيقة موقفها الداعم واللامشروط لإسرائيل، وهي ترتكب جرائمها في حق الفلسطينيين دون رقيب أو حسيب وتحت غطاء أمريكي.

إن الطيار الأمريكي وهو يحطم دولة العراق كما سبق وذكرت، بما يمثل آخر حضارة قوية، قد كان يهدم حضارة إنسانية قامت منذ أكثر عشرة آلاف سنة. بعدما ولدت في أرض الرافدين، واليوم أعاد الله إليها بعضاً من هدوئها وسلامتها اللتين فقدتهما، بسبب الهجوم الأمريكي الذي أفسد كل شيء، بعد كذبة تاريخية جاء بها المسئولون الأمريكيون حين ذاك .ولن تغفر لهم الإنسانية ذلك العدوان الذي أهلك شعباً بأكمله.

إننا في الحقيقة معجبون بالولايات المتحدة الأمريكية، لما تحققه من إنجازات علمية لصالح الإنسانية كلها، ولكننا نلوم مسؤوليها كل اللوم على موقفهم من القضية الفلسطينية، التي لا يرونها ولا ينظرون فيها إلا عبر موقفهم من إسرائيل التي تستغلهم أقبح وأبشع استغلال.

الشهادات العربية الثلاث

أنشأت الإدارة الاستعمارية هذه الشهادات الثلاث، التي تهيأ إلى جانب ثلاث شهادات أخرى بالأمازيغية، ويقبل عليها من يجيد الفرنسية، ويريد تقوية معلوماته بالعربية والأمازيغية. وقد أمكننا ونحن نتتبعها واحدة تلو الأخرى بموازاة مع دراستنا القانونية أن نتقن اللغتين العربية والفرنسية، وأن نضبط المقابلة بينهما بواسطة دروس الترجمة التي كانت تقدم باستمرار. وكانت شهادة الدبلوم الثالثة والأخيرة ذات مستوى رفيع، لا ينجح فيها إلا القليلون، لأنها كانت في وقت ما تعتبر في مستوى الإجازة.

وقد أدت هذه الإجازات خدمات كبرى، لعموم من أَقبل عليها من الطلبة الذين حصلوا فيها على رصيد معرفي كبير، يتعلق بالإسلام وحضارته وثقافته.

إلا أنه بعد الاستقلال، وإنشاء الجامعة المغربية، لم يعد بعض المسؤولين يرون فيها إلا تركة من تركات الاستعمار، وعملوا على توقيفها بدون حق. وها نحن اليوم نشاهد مجتمعنا وقد أصيب بمرض الفصام "La schysophrènie" فأصبح قسم لا يعرف إلا اللغة العربية، وآخر يكاد لا يعرف إلا اللغة الفرنسية التي يتحدث ويكتب بها. فما أحوجنا إلى مثقفين يعرفون اللغتين، معاً ليكونوا على اتصال في نفس الوقت بحضارتهم ولغتهم

وتراثهم، وبإحدى لغات العصر كالفرنسية والانجليزية والاسبانية، التي تجعلهم يتفتحون على العالم الحديث ويتحدثون لغته. وبذلك عادت الحاجة ماسة إلى إحياء تلك الشهادات القديمة، لا بين اللغتين العربية والفرنسية فقط، بل بين العربية واللغات المنتشرة الأخرى؛ التي تعد مَنْهَلاً مهما من مناهل الثقافة الحديثة، لمعرفة العالم المعاصر، وما يجب أن يعرفه الإنسان عنه، ولا يليق به جهله أو الانصراف عنه.

الطبخ الفاسي

الطبخ المغربي عامة، والفاسي على رأسه حصيلة طويلة وتجديد مستمر... فالفاسية لها مطبخ خاص يسمى" الدويرية " والكوزينة ... وعملية الطبخ تسمى "الطياب ".

اللحوم بأنواعها، والخضر، والفواكه: الطرية، واليابسة والأرز، والقطاني والتوابل، والزيت والسمن، والعسل، والبقول، وأشياء أخرى، هي مادة الطبخ الفاسي ...

وهناك أطعمة عادية، وأطعمة ممتازة، وتنقسم كل منها إلى: قدرة، وطجين، فالأول يطبخ بالسمن ...والثاني يطبخ بالزيت... مع التوابل الخاصة بكل نوع، وهذه أشهر الأنواع المستعملة مع اللحم:

- المقلي ...
- المحمر...
- المشرمل...
- المدربل...

- الكباب المغضور
- المحلى بالعسل أو السكر، والزيت
- المخضر، بالخضر المختلفة

ولكل نوع من هذه الأنواع سواء مع اللحم أو الدجاج، توابل خاصة، تعطيه مظهراً خاصا ورائحة خاصة... وطعما خاصا...

ومن الأخعـمة الممتازة:

- **التفايا:** وتكون من لحم الغنم، مع السمن وتوابل، من جملتها سكين جبير، تعطيها نكهة خاصة، ولاسيما في الحفلات... وتزين التفايا بالبيض المسلوق عند تقديمها...

- **الدجاج المقلي:** يكون مع الزيت والتوابل الخاصة بالمقلي. ويزين بالزيتون الحامض، وقشور الليمون المصير عند تقديمه...

- **البسطيلة:** تكون محضرة بأوراق من الدقيق الجيد، وتحشى داخلها طبقات من لحم الحمام أو الدجاج، واللوز، والبيض مع السكر، وتقدم في الحفلات، وتزين بالسكر والقرفة...

- **المشوي:** يكون من لحم الغنم المدهون بالسمن، ويوضع في الفرن حتى ينضج وتحمر قشرته، ويقدم في صحون واسعة...، وإلى جانب هذا نجد للطبخ الفاسي عددا من الأنواع مع الحوت، والدجاج، ولحم البقر والغنم...

كما نجد له أنواعا من الكسكس تقدم في مناسبات وأشكال مختلفة...

والمرأة الفاسية لها ذوق خاص في صنع الحلويات سكرية وعسلية. ولكل نوع منها اسم خاص... كما أن لها عناية متميزة في تنظيم المائدة... وترتيب الأطعمة وتقديمها للضيوف...

وللضيوف مكانة خاصة في فاس، حيث ينالون من التكريم والمجاملة ما هو معروف ومشهور...

وهناك عدد كبير من الطواجين العادية التي تطهى يوميا، وكذلك القطاني والمعجنات، وعلى رأسها الرغائف اللذيذة، وترسل إلى الفران وتسمى بصطيلة الفران.

وقد تطور المطبخ الفاسي كثيرا وجداً، ودخلت عليه عدة أنواع جديدة لم تذهب بشخصيته ومذاقه، الذي تسهر عليه المرأة المغربية، فتجعله لذيذاً، ويمكن أن نسميه المطبخ الجديد الأصيل.

متفرقات

ـــ اللهم أهلك من أهلكما ـــ المساجد في أوروبا ـــ النصوص باللغة الفرنسية ـــ إليادة العرب ـــ التعليم / المدرسة ـــ تكوين الأئمة ـــ مآدب الأستاذة الفرنسيين ـــ قضية الطالب ومنحة العراق ـــ لا بد للمسجد من إعانة ـــ حوادث 1944 ـــ قضية الأساتذة المتدربين

اللهم أهلك من أهلكنا

كانت الأسواق قديماً بفاس مليئة بالحرفيين الذين يشتغلون بانتظام وتتابع، وكانت العادة في بعض الأحيان أن يحضر إلى السوق إنسان فنان، يَعْبُرُهُ جيئة وذهاباً، وهو ينشد بعض الأشعار بصوت يسمعه الناس، وينقر على طبلة جلدية بين يديه والناس ينصتون في هدوء، مستريحين لما يسمعونه من القول المنظوم الذي يأتي من صاحبه بصوت مَنغوم. لكن الأمور لم تستمر على هذا النحو عندما ظهرت الإذاعة، فقد اشترى بعض الحرفيين آلة الراديو، وصاروا يسمعونها وينصتون إليها، مستعيضين بها عن صاحب الكلام المُغَنّى، الذي لم يعد يتلقى عطاءاتهم وإن كانت ضعيفة، فقد كانوا يكتفون بسماع الراديو لأنه أكثر تنوعا لما فيه من أخبار، وأغان وأحاديث، وصار الفنان يتأذى من ذلك كثيراً، لانقطاع الرزق عنه وضياعه منه، وصار يقول : "اللهم أهلك من أهلكنا" أي مخترع الراديو الذي أسكته.

وحالة أخرى تشبه هذه، وهي دخول الثلاجة الحديثة بيوت أهل فاس، الذين كان من عادتهم وفي الصيف على الخصوص أن تكثر صدقاتهم وذلك لئلا تفسد المآكل التي يتصدقون بها. وجاءت الثلاجة، فكاد ينقطع على الفقراء ما كانوا يتلقونه من الدور، ومن بعض الدكاكين التي تبيع المواد التي تفسد إذا لم يبادر الناس بأكلها. لهذا صار بعض الفقراء يدعون "اللهم أهلك من أهلكنا"، وهو عندهم مخترع الثلاجة وبائعها ومشتريها، الذين كانوا السبب في حجب وتقلص ما كانوا يتلقونه من طعام، يعيشون به هم وأبناؤهم. وهكذا أحدثت بعض التطورات أضراراً في المجتمع القديم الذي كان يعيش على وتيرة واحدة من الزمن القديم، لكن هذه الوتيرة تغيرت بحكم التطور والتقدم.

المساجد في أوروبا

كثر عدد المسلمين في أوروبا، واحتاجوا إلى مساجد يؤدون فيها صلواتهم، لكنهم يجدون في تحقيق ما يريدون صعوبات تتزايد يوما بعد يوم، وتأتي من جهات عديدة، وخصوصا من اليمينيين المتعصبين الذين أصبحوا يعارضون الترخيص ببنائها بكل ما أوتوا من قوة ونفوذ.

وفي رأينا أن أهم أسباب ذلك أن المسجد في عمومه منغلق على نفسه، يجهل غير المسلمين الذين يمنعون من دخوله ومعرفة ما يجري بداخله، لأنهم مبعدون عنه، لذلك نقترح أن تكون هناك عوض المساجد الخاصة، مراكز ثقافية تَسَع مسجداً للصلاة، ومعه مرافق أخرى، منها قاعات للتواصل مع غير المسلمين الذين يمكنهم أن يدخلوها لحضور محاضرات في كل العلوم والميادين، مما يساهم في إزالة تخوفاتهم، وعدم ثقتهم بالإسلام والمسلمين. وبذلك تكون هذه المراكز الثقافية مجالات واسعة لزرع الثقة بين المسلمين وغيرهم، وزيادة المعرفة واتساعها بالإسلام وثقافته وحضارته عامة. وينمحي ويزول التخوف مما يجري بالمسجد المنغلق، بحيث تصبح هذه المراكز فضاءات منفتحة للتفاهم والتقارب والسلام بين المسلمين والأوروبيين من غير المسلمين.

النصوص باللغة الفرنسية

هناك نصوص مكتوبة بلغات متعددة، ألفها العلماء المبدعون، ووصفوا فيها معاناتهم، والمراحل التي اجتازوها وهم يجتهدون لتجديد العلم والوصول إلى مبتكراتهم واختراعاتهم؛ وهذه النصوص من أحسن وأفيد ما يدرسه المبتدئون الذين يتصلون ويتعرفون بواسطتها بالفكر العلمي الصحيح،

والمنهج القويم الذي يسلكه كل من ينخرط في البحث العلمي الصحيح، للوصول إلى أهدافه المبتغاة. لذلك كان تلامذتنا وطلبتنا في حاجة إلى قراءة مثل هذه النصوص، ليتدربوا عليها ويسيروا على نهجها، لتكون عقولهم منظمة ومكونة التكوين اللازم، قصد الانخراط في مناهج البحث العلمي المفيد، وليستطيعوا في المستقبل أن يسيروا في تفكيرهم على طريق الإبداع والابتكار. ورجاؤنا أن تعطى العناية لهذه النصوص، في ترجمتها ونقلها إلى اللغة العربية، حتى يعتادها طلبتنا، ويستأنسوا بها في تكوينهم ثم في اجتهاداتهم الابداعية والابتكارية في المستقبل. فمصاحبة العلماء عبر هذه النصوص يكون فيها كل الخير لهم، لأن أبواب المستقبل تنفتح أمامهم واسعة غير منغلقة.

إليادة العرب

عندما هاجمت أمريكا العرق، بحجة إسقاط نظام صدام حسين أرضا وجوا وبحرا، كنا نقول بأن آخر حضارة في تاريخ الإنسانية وأقواها، أرسلت جيوشها القوية وأسراب طائراتها لتسحق وتمحو من الوجود أول حضارات الإنسان وأبعدها في التاريخ.

فالعراق أرض ما بين النهرين دجلة والفرات، هو أول من عرف حضارة إنسانية منظمة، قبل أكثر من عشرة آلاف سنة، تحدث عنها التاريخ وأسستها الشعوب التي كانت تسكنه، وهي الشعوب السامية الأولى، فبعدما عبر بعضها النهرين، لينتقلوا إلى فلسطين، وسموا بالعبريين بعد ذلك، استمر بعضها الآخر ينشئ الحضارات واحدة بعض الأخرى ويقيمها، كالشعوب الأكادية والآشورية، التي تعد أصولا أولى للشعب العربي الذي أقام حضارته بعد مجيء

الإسلام. وقد اعتنى المؤرخون بهذه الحضارات، وذكروا ما قدمته من تنظيمات وإبداعات مازالت ماثلة للعيان حتى اليوم.

وقد كتب أخونا الأكبر الدكتور "محمد التازي سعود" عملا يؤرخ شعريا لها، ويضاهي به "إِليَاذةَ هُومِيروس" التي كتبها لإحياء ذكرى الشعوب الهندية الأوروبية القديمة، والتي مازالت معروفة إلى اليوم، وبذلك كان ديوان" قال الراوي، وهو في أربعة عشر ألف بيت إليَاذةَ العرب التي ترقى بذكرهم وأعمالهم إلى آلاف السنين قبل مجيء الإسلام.

التعليم / المدرسة

قضيت في وظيفة التعليم والإدارة التعليمية 50 سنة، وذلك في مراحله الثلاث الابتدائية والثانوية والعليا. ولم أفقد قط خلال تلك الحقبة الطويلة لذة الاتصال يوميا بالشباب الذي كنت أرعاه أحسن رعاية، وأخلص له في عملي الإخلاص المتواصل لأني اعتبرت دائما أنني في خدمة الوطن أولا وشبابه ثانيا.

والحديث عن التعليم اليوم هو في عمقه لا يتعدى الابتكار والإبداع وتعليم الحوار وترسيخه في السلوك، فالمدرسة ليست فقط مكاناً للإلقاء والحفظ، وإنما هي فضاء للتواصل والتكوين المستقبلي الذي نبني فيه ونكون الأجيال الصاعدة، لتعيش عصرها أحسن عيش. ويكون التمرين على الإبداع والابتكار مسترسلين دائمين، يمرن عليهما التلميذ منذ نعومة أظافره، فهما البحث العملي نفسه الذي يبدأ منذ السنين الأولى ولا ينقطع بعد ذلك. ويكون بجعل نصوص خاصة بين أيدي التلاميذ، منتقاة من المؤلفات التي يكتبها المبتكرون المبدعون، ويسجلون فيها معاناتهم، والجهود التي بذلوها،

والطرق التي اتبعوها لتحقيق رغباتهم الاكتشافية والاختراعية. والتلاميذ حينما يقرؤون هذه النصوص ويناقشونها ويتحاورون من خلالها، يكون في ذلك تمرين دائم لهم على التفتح وتبادل الرأي، بعيدا عن انغلاق النص المحفوظ وجموده. من أجل ذلك كان واجباً أن تهيأ لهم، إلى جانب الكتب المدرسية التي كثيراً ما تنحصر موضوعاتها في الحفظ والتلقي، كتب أخرى موضوعاتها متفتحة على العالم اليوم وغداً. و ما نقوله موجود ومعمول به في كثير من البلدان التي اطلعنا على مقرراتها وبرامجها أثناء العمل، غير أن هذا غير موجود في بلدنا الذي نكتفي فيه بالكتاب المدرسي في أغلب الأحيان. فليست عندنا نشرات بيداغوجية خاصة، يستعين بها الأستاذ والتلميذ في الدراسة في كل المستويات، لهذا وجب على الدوائر العليا المسؤولة عن التعليم أن تشجع على القيام بهذه النشرات، وأن تساعد على التوسع في نشرها وتداولها، حتى تكون بين أيدي الجميع. والمؤلفات التي أشرنا إليها ربما تكون قليلة أو غير موجودة في اللغة العربية، فتلزم ترجمتها، كما تلزم ترجمة الكتب الكبرى في التراث العالمي إلى لغتنا والسهر على إيصالها إلى الجميع.

بهذا يكون تدريس الترجمة أداة فعالة لإغناء الثقافة، علمية كانت أو أدبية، وتوسيعها قصد نشرها في جميع الأوساط، وفتح الباب واسعا للأفكار العلمية قصد الدخول إلى ثقافتنا ومن ثم إلى عقولنا، المطالبة بالجري وراء العصر، ونفض الغبار عنها، لتفهم ما يجري، وتستعد استعداداً كاملا لتلقي التغير الذي يعيشه عالمنا اليوم في كل مظاهره.

في تدريس اللغات الأجنبية ومعرفتها معرفة تامة إغناء لثقافتنا ولغتنا، فكل لغة خزان كبير، وديوان عظيم لأنماط جديدة من الحكمة والمعرفة والسلوك، ستنمي وتغني إذا أضيفت إلى غيرها.

قالوا فيما قبل إن الإنسان لا يعيش بالخبز فقط؛ ونحن نقول إن الإنسان لا ينمو ولا يزدهر في حياته وهو لا يعرف إلا لغة واحدة، فلابد له أن يجتهد ليتعلم أخرى أو أخريات مع لغته الأم، ولذلك فنحن نعتبر أن في تدريس مدرستنا منذ البداية لغتين ربحا عظيماً لجميع الأجيال، فالطفل فيها ينشأ على الازدواج اللغوي الذي يؤهله لعالم المستقبل الذي تسود فيه العولمة ويكثر التواصل والتعامل مع الغير عن كثب. وتلك مزية تمتاز بها مدرستنا التي تبذل جهودا موفقة في تكوين المواطنين، عن كثير من المدارس في البلاد الأخرى، التي لم تكن لها الشجاعة للوصول إلى ما وصلنا إليه، بتدريس وتعليم اللغة الأم، مع لغة أخرى تندمج فيها وتقويها، وتجعلها منفتحة في دوام واستمرار وتعامل إيجابي، تستفيد منه بالاتساع والشمول في التعبير.

وهنا تقوم الترجمة بدور فعال، فهي كالجسور بين اللغات والثقافات، تقرب بينها، وتعلم الناس ما عند الغير، والاعتراف بهذا الغير وبوجوده. لذلك لزم الاهتمام الأكبر في التعليم بهذه المادة المفيدة التي تجعل الإنسان متمكنا من معارفه في كل وقت وآن.

وشيء وحيد لا يعجبني في جامعتنا التي تعيش كلياتها في انفصام مع نفسها، فأنا لا أسمع بأن أستاذا من كلية الحقوق أو من كلية العلوم يحاضر مثلاً في كلية الآداب أو في غيرها، فكأن بين الكليات جدرانا سميكة تمنعها من الاتصال علميا بعضها ببعض، كأن علوم كل واحدة منها لا تعني طلبة الكلية الأخرى في شيء، بينما كان يجب أن يلقي الأساتذة محاضرات عامة على غير طلبتهم المتخصصين، لتسري الثقافة العامة في المجتمع كله، وبين كل الطلبة على الخصوص: طلبة الآداب مثلا يتلقون محاضرات غير

منتظمة في العلوم القانونية والاقتصادية، وكذلك طلبة العلوم والتقنيات في الفلسفة والعلوم الاجتماعية وغيرها.

ومما يجب الاعتناء به في المدارس الثانوية كثيراً تدريس العلوم الإنسانية التي حققت في العصور الأخيرة كذلك تقدماً كبيرا، لا يقل عما حصل في مجال العلوم والتقنيات، إلى جانب أنها تعطي للإنسان الفرصة للتعبير عن نفسه تعبيراً كاملاً صادقاً، يزيل الأوهام ويطردها. أما الشعر فلا نحتاج إلى ذكر فوائده، فهو الكلام الجميل الذي ينمي اللغة والخيال اللذين يحتاج إليهما كل من يقوم بأبحاث جامعية مهما كان نوعها.

إن الخيال مطلوب كثيراً عند هؤلاء، ومن ليس له خيال مكون تكوينا صحيحا لا يكتشف شيء ولا يتعدى النطاق الذي يعيش فيه. فالإبداع يكون بالخيال أولاً، ويصل بصاحبه إلى مقامات الاكتشاف والاختراع في كل الميادين.

تكوين الأئمة

أُعلِنَ في الأيام القليلة الأخيرة أن عض الدول الإفريقية والإسلامية وكذا فرنسا، تطلب رسمياً من المغرب تكوين أئمة، ليعملوا بمساجدها، ويقوموا بالخطبة الإسلامية، نظراً لثقة هذه الدول في أن المغرب معتدل في دينه، غير متطرف ولا متشدد. وهذا شيء جميل، لما أصبح يقوم به الدين من دور فعال في المجتمعات الحديثة وفرنسا وهي الدولة الأوروبية الأكثر لائكية، تلجأ إلى مثل هذا الأسلوب، لصالح الجالية الإسلامية الكبيرة المقيمة فيها، وللدور المهم الذي تلعبه هذه الجالية في فرنسا وفي غيرها من البلاد الأوروبية.

ويحق لنا أن نتساءل عن المستوى الثقافي الذي يجب أن يكون عليه هذا الإمام، وعن تكوينه بل عن نفسيته وطبيعته، فمستواه الثقافي يجب أن يكون جامعيا عاليا، ومعرفته يجب أن تتناول جهات متسعة ومتنوعة من المعرفة والثقافة.

إننا نرى أنه إلى جانب الثقافة الإسلامية، ومعرفته للقرآن واللغة العربية، بثقافتها وحضارتها، يلزمه أن يتقن كذلك في مستوى عال اللغة الفرنسية وثقافتها وحضارتها ومجتمعها، تاريخيا وجغرافيا، ليستطيع التعامل مع سكان هذا الشعب الأوربي المثقف الرفيع المستوى. ثقافة الإمام العامل في فرنسا على سبيل المثال يجب أن ترقى إلى مستوى ثقافة الفرنسيين ليتقرب منهم ويعمل معهم في هدوء وسلام، ولنا رأي نعبر عنه بهذه المناسبة فيما يخص بناء المساجد في فرنسا وفي غيرها من البلاد الأوروبية.

ذلك أنه لما قامت الثورة الفرنسية وأعلنت اللائكية في فرنسا، أصبح المسيحيون مضايقين في اعتقاداتهم التي لم يعد لها المقام الأول في الفكر الفرنسي؛ فلقد تحرر الناس شيئا فشيئا من ضغطها وحضورها في كل المظاهر المجتمعية. عند ذلك كان جواب الكنيسة على هذا بأن فتحت أبوابها ليلجها المسيحي وغيره وذلك لتبقى قريبة من الناس، وقد نجحت في ذلك إلى حد ما.

لهذا نرى أن المسلمين الأجانب على فرنسا و أوروبا وكذلك الإسلام الذي يتدينون به، أصبح يحتاج إلى معالجة خاصة هناك ليزول سوء الظن بينهم وبين غيرهم من أهل البلد، وذلك بإنشاء مراكز ثقافية ذات فضاءات متعددة، يقصدها الجميع من مسلمين ويهود ونصارى، تكون لها فضاءات عدة موزعة مثلاً على الشكل التالي: فضاء للمكتبة، وفضاء للتواصل العام تلقى

فيه محاضرات بمختلف اللغات للمسلمين وغيرهم، وفضاءات أخرى للحوار والدراسة ربما تدور فيها كؤوس الشاي وأنواع العصائر الحلال، فيكون فضاءً للشباب تعطى لهم فيه دروس إضافية في اللغتين العربية والفرنسية، وغيرهما من اللغات، وفي كل العلوم التي يحتاج إليها الدارسون الذين يجدون لهم في هذا الفضاء وفي الفضاءات الأخرى مستقراً جذابا، تحلو فيه الحياة وتروق، لتصبح ملاذا للجميع. أما المسجد فهو قاعة للصلاة، من جملة القاعات التي تكون بجانب هذا كله، ويؤدي فيها المسلمون صلواتهم؛ والأحسن أن تكون قاعة المسجد شفافة محاطة بالزجاج، ليشاهد غير المسلمين الناس وهم يؤدون واجباتهم الدينية، بكيفية لا تبعث على الشك في نواياهم، ولا على عدم الوثوق من مقاصدهم.

الإمام في هذا كله هو الذي ينسق الأعمال، ويستقبل الجميع بصدر رحب، ويشارك في الحركة الثقافية العامة، مهما علا مستواها و ارتفع. والعلماء من أهل البلد الذين يقصدون هذا المركب يجدون في استقبالهم إماما مكوناً أحسن تكوين، في لغته ودينه وثقافتهم ومعرفة تاريخهم وجغرافيتهم وماضي بلادهم، والمستقبل الذي يحنون إليه؛ وكأنه واحد منهم إن الإمام في الأخير هو مفتي الجماعة، ورائدها، ومرشدها الذي ينصحها ويرشدها في جميع الحالات.

الأساتذة الفرنسيين

حينما فتحت المدرسة الجديدة أبوابها وتوسعت خلال الحماية، كان بعض الآباء يفرحون، حينما يطلب دعوة الأساتذة الفرنسيين بالمدرسة

للأكل بالمنزل. فكانوا يصرفون مبالغ مهمة على المأدبة التي يقيمونها، لأن طبخنا المغربي لذيذ، ويرغب في أكله الأجانب كثيراً.

فهذه البسطيلة يأتي بعدها اللحم المحمر، ثم الدجاج المُجَمّرُ، تعقبه أنواع الفواكه، والشاي المنعنع والحلويات على مختلف أشكالها. ثم ينسحب الأساتذة الفرنسيون، وكلهم مدح وشكر لصاحب المنزل الذي متعهم ولم يبخل عليهم بشيء.

ويحدث بعد ذلك أن يحتاج التلميذ إلى دفتر صغير، ثمنه قروش يطلب شراءه من أبيه لكن أباه يحيله على المدير الذي لن يبخل عليه بدفتر صغير، غير أن المدير لا يلبي طلبه لأنه ليس من عادته أن يوفر للتلاميذ الدفاتر، ويبقى التلميذ بين أبيه والمدير أسبوعاً أو أكثر، إلى أن يتفضل أبوه فيعطيه القروش ليشتري بها الدفتر. وسبب هذا أن دفع القروش لشراء الدفاتر والكتب، لم يكن قد صار عادة عند الآباء الذين يدفعون أموالا باهظة، وهم مرتاحون لشراء المأكل والمشرب اللذين اعتادوهما منذ زمن طويل، أما الدفاتر والكتب فلم يكونوا معتادين شراءها ودفع ثمنها، فلذلك كانوا يتأخرون كثيراً في ذلك أحيانا، لأنهم كما كان أباؤهم لا يعرفون هذا الباب في دفع النقود. ومما يذكر أيضاً هنا أن الدفاتر المكتوبة بالفرنسية كانت تباع للبَقّالين يلفون في أورقها السكر والشاي وبعض المبيعات الأخرى. أما دفاتر العربية فممنوع أن يبيعوا فيها مثل ذلك، لأن الباعة يحرجون من استعمال أوراقها، لأنها مكتوبة بالأحرف العربية التي كانوا يحترمونها بل يقدسونها. ولقد كانت تجارة الدفاتر أولاً محصورة في بعض الأمكنة وغير عامة، وأول من اشتهر بها وقصده الناس من جميع أنحاء مدينة فاس لشرائها ومعه الأدوات المكتبية كلها هو المرحوم بنسالم بناني الذي، كان يتحلق

الناس حول دكانه لاقتناء ما هم بحاجة إليه من الأوراق العصرية، التي لا يجدونها عند غيره. ولا يفوتنا بهذا الصدد أن ننسى ذكر سعيد السوسي، الذي كان دكانه بسويقة بن صالح والذي كان بقالاً في الأصل، اشترى ذات يوم كتبا مستعملة ثم باعها بربح لا بأس به، ومن ذلك الحين، ترك حرفة البقالة وصار دكانه عبارة عن مكتبة مدرسية، يقصدها كل من يبيع كتاباً أو يشتري غيره، بحيث كان الأمر في البداية يقتصر على الكتب المدرسية المستعملة، ثم تشجع وصار يصعد إلى المدينة الجديدة، ويشتري من المكتبات الفرنسية الكبرى عددا من الكتب المقروءة، وينزل بها إلى حانوته الذي كان يقصده تلاميذ، المدينة لشراء الكتب جديدها ومستعملها لزمن طويل.

ولذلك يمكن أن نقول إن شخصيتي بنسالم بناني العطار أصلاً، وسعيد السوسي البقال أصلاً، قدّمَا لسكان المدينة خدمات كبرى ولزمن طويل في ميداني الوراقة والمكتبة؛ وأنا واثق من أن الناس مازالوا يذكرونهما حتى الآن، بعد مضي عشرات السنين واتساع هذه الحرفة التي تعرفها كل جهات المدينة اليوم.

قضية الطالب ومنحة العراق

وقف في بابي في أحد أيام أكتوبر طالب، وبيده مطبوع يريد أن أوقعه له. وكان هذا المطبوع يدل على أنه حصل على منحة للدراسة بالعراق، بعدما سجل بفاس؛ وقد رفض المسؤولون القبول بتمتيعه بالمنحة، مالم يأخذ الإذن مني. فنصحته كثيراً قائلاً له أنه ممنوح هنا بالمغرب، فلا يحتاج إلى منحة جديدة ليعيش بها، ثم ثانيا أن الدراسة بفاس مثلها في بغداد. ولكنه أصَرّ على ذلك كثيراً، وألَحّ إلحاحاً عظيماً، رغم أني أخبرته بأنني زرت الجامعة

العراقية ببغداد، وأنه ليس فيها ما يجعلها تمتاز علينا في شيء. غير أنه بكى وقال إن هذه هي الفرصة التي تُتَاحُ له للخروج من المغرب والدراسة في بلد عربي كبير. فأذعنت ووقعت الورقة وشكرني وذهب.

وبعد مُضِيٍّ بضعة أشهر، وجدته واقفا بباب مكتبي من جديد، راغبا في العودة إلى الكلية التي لن تتأتى له إلا إذا قبلته. فرفضت أولا تسجيله من جديد، لكنه بدأ يبكي ويحتج ومعه أمه تسألني ألا أفرق بينها وبين ولدها الذي ليس لها غيره. وفي ذلك الوقت كان الطلبة مضربين عن الدراسة، ويعقدون اجتماعا في قاعة المحضرات في حرية تامة؛ قال لي لو فعلوا هذا في بغداد كانت رؤوسهم ستطير في الحين، أنا حضرت أمس وتعشيت في الحي الجامعي، وأكلت الدجاج معهم والخضروات، وكل منا كان يأكل ما أراد لوفرة الطعام والدجاج، في بغداد لا يراه الطلبة حتى في التلفزيون حسب قوله. ثم بعد هذا أنت المسؤول عما وقع لي قلت له كيف ذلك قال: "لأنك تعرف ما هناك، ورغم ذلك رخصت لي بالذهاب. قلت له رخصت لك: لإلحاحك وعدم سماعك لنصيحتي، قال: أنا كنت جاهلا بالواقع، ورأيي أن حكومتنا يجب أن ترسل هؤلاء الطلبة المضربين إلى العراق، ليعرفوا الحقيقة بعيداً عن كل دعاية، وبكت أمه مرة أخرى فقبلت تسجيله وسلمته منحته التي بقيت في الإدارة، ولم نكن قد أعدناها إلى الوزارة، وعاد إلى دراسته يحكي عن المصائب التي أصابته في بغداد، وعن أعمال الشرطة التي قال إنها كانت تقتل الناس في الطرقات، والطلبة في ردهات الجامعة.

لابد للمسجد من إعانة

كان بعض التجار البدو يدخلون إلى فاس للتسوق وشراء ما يلزمهم من كل شيء؛ ولأجل أن لا تضيع منهم نقودهم، كانوا يلجأون عند وصولهم

إلى تجار من أهل فاس، معروفين بصدقهم، وموثوقين في معاملتهم، فيعطونهم نقودهم كلها أمانة، والتجار هم الذين يمشون في الأسواق، ويستجيبون لحاجيتهم. وغالباً ما كانوا يستدعونهم للإقامة خلال يومين أو ثلاثة أيام في دورهم، وذلك لئلا يتصلوا بغيرهم في تلك الأثناء.

وذات مرة دخل أحد البدويين وسلم نقوده لتاجر غير موثوق به، وفي الغد صباحاً عاد إليه، ليتفق معه على المشتريات، فأنكره التاجر مدعيا أنه لم يتلق منه شيئا؛ وبعدما تصايحا كثيراً لم يبق لهما إلا الالتجاء إلى الحاكم الذي حقق معهما كثيراً، فهذا ينكر والآخر يدعي، ويقسم بأنه مكنه من كل النقود التي كانت عنده، فلم يجد الحاكم بداً بينهما للحكم، وفق القاعدة الشرعية المشهورة: "البينة على من ادعى واليمين على من أنكر".

ولم تكن للبدوي بينة، فقد أقسم بأغلظ أيمانه أن نقوده عند التاجر الذي تابع الإنكار، فحكم عليه الحاكم بأداء اليمين، ورغم أن هذا الأخير لم يكن سهلا، لأنه يمر بطريقة إشهارية، حيث ذهب الاثنان إلى المسجد مصحوبين بصاحب القاضي. وتقتضي المسألة أن التاجر سيؤدي اليمين لإنكاره حيازة النقود من البدوي. ولم يكن التجار عادةً يحبون هذا، لأنه يشكك في أمانتهم ويبعد عنهم الناس لعدم الوثوق فيهم.

وتقدم التاجر في المسجد، وأخذ الكتاب وأدى اليمين أمام الجميع، وكان البدوي لوثوقه بدعوته ينتظر أن يعمى صاحبه في الحين، أو أن يفقد الوقوف على رجليه، أو غيرهما من الوظائف الجسمية، لكن شيئاً من ذلك لم يقع، فقد بقي التاجر يسمع ويرى ويمشي على رجليه، وعند ذلك انهال البدوي على التاجر يضربه ضرباً مبرحاً بعصاه، وهو يقول: "المسجد لابد له ممن يعينه لحصول الآفات المنتظرة "

حوادث 1944

وقعت لي خلال الخمسين سنة، التي قضيتها في جميع مراحل التعليم الابتدائية والثانوية والجامعية حوادث ربما أكون قد نسيت أكثرها. لكن بعضها لا زال عالقا بذهني لم يترك ذاكرتي. ففي سنة 1954 كنت أعمل بالخميسات، وكانت المقاومة على أشدها، حينما كنت أصحح أوراق درس الإنشاء الذي كان موضوعه حول السهرة العائلية، وجدت في إحداها ما يأتي: كانت أمي تخيط ثيابها وإخواني يلعبون، أما أبي – ولعنة الله عليه - فكان يقرأ الجرائد. وقد هجت هيجانا عظيما وفي الغد، سببته سبا عنيفا، إلى درجة أنه ترك مكانه وهاجمني، لكن التلاميذ اعترضوا طريقه وقالوا لي: لا عليك سنهتم نحن بالأمر. وفي الغد عاد التلميذ إلى القسم وفي وجهه رضوض من آثار مصارعة الآخرين، الذين طلبوا مني ألا أشكوه إلى الإدارة، لأن عقابه سيكون كبيرا، وقلت إن الأمر انتهى عند ذلك، لكن بعد يومين استدعيت إلى مكتب المدير الذي وجدت به عسكريا بلباسه الخاص وقبعته، عرفت منها أنه ضابط كبير في جيش الحماية، قال لي عندما دخلت " أنت هنا لماذا ؟ أو أنت هنا لتعيننا للحفاظ على النظام.

قلت: نعم

قال: "ماذا وقع من فضلك قبل يومين؟"

ففهمت أنه يشير إلى مسألة التلميذ الذي ذكرته.

قلت: لم يقع شيء يستحق الذكر.

قال: ألم يهاجمك تلميذ بالقسم وذكر اسمه؟

قلت: ربما تقع حوادث دائما ونحن نعرف كيف نصححها.

قال: إنك تحمي ثائراً يستحق كل العقاب، وكان الوقت سنة 1954، والملك محمد الخامس منفي هو وأسرته، والمقاومة على أشدها في الخميسات، وزاد العسكري يحاول أن أعترف له بما وقع، لكني أصررت على الإنكار، وبعد قليل قال لي: احترس قبل أن تذهب ضحية ما يقوم به غيرك من عمل شنيع، وسنعود إلى هذا الموضوع، قالها ووقف واتجه نحو الباب. فتبعه المدير إلى أن خرج من المدرسة، ثم عاد إلي وكان من الفرنسيين الأحرار، يهنئني على مواقفي الصلبة أمامه، قال: لو اعترفت له بما أراد لطرد التلميذ من المدرسة ولأخذه للعمل المستمر في إحدى ضيعات الفلاحين، بحيث لا يعود إلى المدرسة والبلدة قط.

قلت له: كنت أعرف ذلك. وبعد سنوات عديدة، كنت أعمل بفاس بليسي مولاي إدريس تقدم إلي ذات صباح عسكري، فحياني بتحيته العسكرية قائلا وهو يبتسم: أستاذي ألا تتذكرني؟ أنا التلميذ فلان الذي كتب في ورقته ما أزعجك كثيراً، لكنك سكت عني رغم ذلك وبذلك لم أطرد. وإذا كنت اليوم كما تراني ضابطا صغيرا في الجيش المغربي، فمن أجل ذلك، لقد تابعت دراستي، وحصلت على شهادة عليا مكنتني من ولوج هذا المنصب، ولو كنت شكوتني ربما لكنت اليوم في الجيش في درجة وضيعة، لأنه تنقصني الشهادات التي حصلت عليها بعد بقائي في المدرسة ولعدم طردي منها، فإليك يرجع الفضل في الحصول على هذه الشارات المعلقة على صدري وعلى كتفين جزاك الله خيراً. وكان ضابطا في حامية فاس ثم حياني وانصرف.

قضية الأساتذة المتدربين

كان رجال الأمن لا يرفعون أيديهم أمام المدرسين، إلا لتحيتهم وشكرهم، لأن هؤلاء هم رجال المعرفة والعلم، ومعلمو هذه الأمة، اعترافا لهم

بالفضل والامتياز. لكن رجال الأمن خرجوا عن هذه المعاملة أخيرا، وأسالوا دماء رجال العلم ودموعهم حينما خرج هؤلاء، إلى الشارع احتجاجا على بعض المعاملات والقوانين الإدارية التي لم يرتاحوا لها، واعتبروها في غير صالحهم.

هؤلاء المعلمون الذين هم محترمون في كل المجتمعات والذين يقول فيهم شاعرنا العربي:

قم للمعلم وفّه التبجيلا ** كاد المعلم أن يكون رسولا

هاهم اليوم عندنا، تكسر جماجمهم بالعصي، فتسيل دماؤهم على وجوههم، ويحاصرون في الشوارع ويمنعون من إعلاء أصواتهم للتعبير عن مصالحهم.

معذرة أيها المعلمون، يا رجال العلم والمعرفة، ويا مكوني أجيال المستقبل، لقد استهان بعضنا بوظيفتكم، وبفضلكم على المجتمع وتميزكم، إننا نبكي لكم ونحتج معكم، وندعو إلى احترامكم وإلى اعتبار آراءكم، لأنكم الجنود المجهولون الذين يهبون حياتهم لأمتهم، ويكونون أجيال المستقبل، وهم يتقاضون مقابل ذلك أجوراً زهيدة لا تسمن ولا تغني من جوع.

لذلك يتأكد فضلكم على هذه الأمة التي لا ترد إليكم الجميل، ولا تقدر مقامكم حق قدره، فبدونكم وبدون عملكم المتواصل لا يكون لها المستقبل الزاهر، الذي ننتظره من المدرسة التي تنشطون أنتم فيها وتبلغون رسالتكم.

معذرة مرة أخرى أيها الأساتذة المحترمون عما يمكن أن ينالكم من ضيق وحرج، وأنتم تعطون عطاءكم العلمي المستقبلي المميز الذي لا يقدر قدره إلا العارفون المتمكنون. إن كل الأمم تحترم معلميها ورجال العلم فيها الذين

يقودونها نحو المستقبل الزاهر الذي ينتظرها، فهي لا تحط من قدرهم ولا ترفع أيديها أمامهم إلا لتحيتهم وشكرهم على ما يبدلونه من جهود، وما يقدمونه لصالحها.

النهضة

ـــ الثقافة المغربية ـــ الغلو الديني والتطرف الإيديولوجي

ـــ بين توزيع الثروة وتوزيع العلم ـــ للغرب أحكام جاهزة عن الشرق

ـــ الإنسانية الجديدة ـــ حلة العصر ـــ أخذتني سنة من النوم

النهضة

شغلت النهضة في العالم الإسلامي قاطبة كل المفكرين والمصلحين منذ وقت بعيد، بعدما عاش مجتمعنا قرونا في التخلف والانعزال، حتى أصبحت قابليته للاستعمار في مطلع العصور الحديثة مؤكدة، ولذلك لزمت ضرورة البناء والتجديد والإبداع لأن هذا هو ما يصنع الحضارة، ويعمل على التطور، ولذلك يجب علينا تحديد العوامل السلبية التي كانت سببا في التخلف الاجتماعي، ووضع تخطيط إيجابي يحدد معالم الطريق، ويسير بالمجتمع نحو المستقبل بخطوات ثابتة ومنهجية معقولة، ندرس فيها الإنسان الذي يحرك المجتمع والتاريخ. وعلاج التخلف المتمكن لا يكفي فيه استيراد الأفكار، بل يجب تشخيص الغاية من النهضة بصورة واضحة، ويتطلب ذلك التعمق في دراسة التاريخ باعتباره عملية اجتماعية قادرة على تحديد الأسباب والنتائج المرتبطة بمصير الإنسان، دون إهمال البديهيات والعادات الفكرية، وذلك لتجاوز الخلل الموجود في الأفكار والأشياء، ولتنظيم علاقة مع الغرب، الذي لا لزوم مطلقا لتقليده في كل خطواته، فالواجب يقتضي أن ندرك بأن الخلل الواقع لا يحل عن طريق التقليد، وإنما عن طريق إبداع للإنسان جديد مع الاستفادة من تجارب الآخرين بروح نقدية، عن طريق اختيار وانتقاء ناضجين، حتى نستعيد أصالتنا وتميزنا فنحن لا نستطيع أن نعيش في عزلة، لأننا مطالبون بتنظيم علاقة جديدة بالغرب وبالاستفادة من تجاربه، لأن في قطع العلاقة معه موقفا انتحاريا غير معقول.

النهضة هي حاجز فكري عربي منذ أوائل القرن 19، ولها تيارات واتجاهات تهدف إلى تحقيق الانبعاث عبر مشاريع مختلفة، ويتميز هذا

الخطاب بالتوتر والانفعال عند بعض المصلحين، وذلك بانعدام التوازن ما بين الذاتي والموضوعي، فهناك مقولات فارغة جوفاء تعبر عن آمال ومخاوف.

فهي خطاب وجداني في معظمها لا عقلي، فالنهضة عنده لا تعتمد إلا على بعث ما مضى لا على خلق الجديد.

الثقافة المغربية

عرفت الثقافة المغربية في بداية نهضتها الحديثة حوارا بين مصدرين مهمين، هما المصدر العربي الشرقي، الذي كان له تأثير بالغ، وبين المصدر الغربي الذي تأثر به جماعة من الحداثيين الذين اعتبروا الفكر الغربي قديمه وحديثه مرتكزا يجب التعويل عليه في تجديد الفكر المغربي.

وقد نتج عن ذلك توافق وتداخل، أدى إلى التغير في فكرنا الذي بقي لمدة طويلة منطويا على نفسه، لا يتجه إلا نحو الماضي والتراث، غير أنه لما تحلى بالمنهجيات الحديثة اهتز اهتزازا عظيما، وأنتج باللغة العربية إنتاجا وصلت أصداؤه إلى المشرق الذي اهتم به وقدره حق التقدير.

غير أن هذا لا يمنع من أن نقول بأننا نعيش أزمة ثقافية تدل على ارتباك حاصل في هذا الفكر، نتيجة تعدد الرؤى والمواقف والتصورات، في انتظار الملاءمة بين الأولويات، على أن ينشأ عن ذلك بديل وطني جديد يرتكز على الهوية، ويقوم على تفاعل إيجابي بين كل العناصر المكونة. التي منها إحياء التراث وإبعاده عما تكدس خلال التاريخ من أفكار أصبحت متجاوزة. وبجانب ذلك يتحدد التفاعل الإيجابي مع الثقافة العالمية، فيتمكن من فهمها فهما عميقا، ومن الوعي بأنها نسبية، ومن عدم التعامل معها كقوالب جاهزة تستمر على شكل واحد، لأنها في أصلها مبنية على التغير والتجاوز.

الغلو الديني والتطرف الإيديولوجي

لا تسلم منهما أوروبا نفسها، فعندهم تيارات عقدية تستعمل العنف من أجمل تحقيق أهداف سياسية، وترجو خلق جو من عدم الاستقرار والأمن عند الآخر المختلف في الاعتقاد والمذهب. والأصولية موقف أصحاب عقيدة أو مذهب فكري يرفضون تكيف عقيدتهم أو مذهبهم حسب الظروف الجديدة؛ فهي جمود على الأصول، ومحاربة رافضة كل تجديد أو تطوير. وهذان المصطلحان ارتبطا بالصراع في أوروبا بين الكنيسة والدولة، فطائفة تتعصب للدين ومقتضياته، وأخرى للعقل ومتطلباته، وللسياسة ومصالحها المحلية والعالمية، هذا الغلو والتطرف هو الذي دفع الغرب الأوروبي الديني، رغم ثوراته الصناعية والسياسية ومطامحه الديمقراطية إلى الشعور بالاستغلال، واعتبار نفسه يمثل الحقيقة، وفرض نموذجه الثقافي والفكري والحضاري على غيره بحجة تحضيره وترقيه؛ لكن غرضه كان الاستيلاء والاستعمار، واستثمار الموارد، وذلك لفرض سلطانهم المتطرف وقوتهم الكبرى، لمنع غيرهم الذي يتصدى لمناقشتهم بالعقلانية التي طالما نادوا بها.

بين توزيع الثروة وترويج العلم

تحتاج البلاد النامية، كما تفعل البلاد المتقدمة إلى توزيع الثروة بين أعضاء مجتمعها توزيعا عادلا، يصل به إلى جميع أفرادها نصيبهم من الثروة، وذلك كي لا تبقى هذه الثروة متجمعة لدى طبقة خاصة، تعرف كيف تحتال عليها منها، وبذلك يكثر الفقر والجوع، وتظل طبقات أخرى غير مشاركة في الحياة العامة لأنها مقصاة عنها مهمشة بحكم فقرها وعجزها. ومنذ بداية العشرين أخذت الحكومات تنظر في الأمر، واقترح الاقتصاديون

عدة وسائل ومناهج لتوزيع الثروة بكيفية عادلة على الجميع؛ ولتجنب الاحتجاجات والثورات الدموية التي يطالب فيها المحرومون بحقوقهم ونصيبهم الضائع، الذي يستولى عليها غيرهم.

كما يتحدث في المجتمعات عن توزيع الثروة توزيعا عادلا، يتحدث أيضا عن توزيع المعرفة توزيعا عادلا كذلك؛ والمدرسة هي الوسيلة الأولى للوصول الى ذلك الهدف، ففيها يأخذ الجميع قسط امن المعرفة يتزايد يوما عن يوم وسنة بعد سنة، فيعرف الناس حقوقهم ويعرفون كيف يدافعون عن أنفسهم في الحياة دفاعا مستمرا قائما على أسس متينة من العلم والثقافة ويعرف الناس بواسطته كيف يعبرون عن وجودهم ويحافظون على أنفسهم، ويبنون لهم وجودا حقيقيا بعيدا عن الإقصاء والتهميش والإهمال والنسيان. وبذلك يكون دور المدرسة أقوى الأدوار في بناء المجمعات، ويتزايد دائما بارتفاع مستوى الدراسة في الثانوية، ويتعالى بالوصول إلى الجامعة إذا ما كان التعليم في جميع مراتبه تعليما حقيقيا، بعيدا عن الحفظ والتكرار، قائما على التلقين والتكوين وعلى البحث العلمي الذي ينشئ أفرادا ذوي فكر فعال يفهم حقائق العصر ويعرف كيف يندمج فيها ويستفيد منها عن وعي وفهم وعلم.

إن دور المدرسة فعال في المجتمعات النامية، فبواسطتها يصل إليها العلم وتستقر بها المعرفة، فترفع مستواه ويسير في طريق النمو بخطى ثابتة، لا تعرف التهاون والارتباك. ودور التكوين من البداية إلى الجامعة دور عظيم للأمة إذا ما أعطي ما يستحقه من البداية في كل المراحل، ليتوتى أكله وينتج مجتمعا متطورا قائما على العقل والواقع، قابلا لمواجهة كل التغيرات التي تحدث، مستفيدا من حسناتها، مبتعدا عن سيئاتها التي يعرف كيف يتجنبها، ولا يغتر ببريقها الذي ما كان ليغريه لو لم يكن متسلحا بفكره

وبمعرفته الصحيحة. إن المدرسة تقوم أولا بدور ترويج العلم، وتقريبه من الناس ومن أذهانهم فيقتربون منه ويتعرفون عليه، فلا يبقى مجموعة أفكار يسمعون عنها لكنها غريبة عنهم. المجتمع الجديد هو الذي تستوطنه المعرفة المستنيرة وتسكنه،يعرفها الناس ويتحركون بواسطتها، ويتعاملون من خلالها تاركين كل ما كان يضللهم، ناسين كل ما كان يسير بهم في غير الطريق المستقيم، مقتربين من المجتمعات الأخرى، متعاملين معها، على ضوء الأفكار الجديدة التي وصلتهم، متعاونين مع غيرهم في حوار بناء من أجل الحرية والسلام والديمقراطية وحقوق الإنسان.

إن المدرسة هي الطريق الأمثل للوصول إلى هذا الهدف المجتمعي الكبير، الذي يخرج الناس من ظلمات الجهل إلى نور العلم والتقدم؛ ولا يشاركها في هذا العمل الصعب الرصين سوى مجموعة من رجال الصحافة والإعلام الراسخين في مجالات العمل الصحفي ذي المستوى الرفيع، من أولئك الذين يكتبون عند مطلع كل شمس، في كل المجالات الاقتصادية والعلمية و المجتمعية وغيرها، موجهين المجتمع. إن مجتمعنا في حاجة ماسة إلى وجود إعلاميين علماء، يستطيعون النظر إلى المجتمع في حالته الواقعية، ودراسته دراسة عميقة، وإبداء رأيهم دون انقطاع، وبذلك يؤثرون في المجتمع ويوجهونه الوجهة الصحيحة، لأن الناس ينصتون إليهم، ويعتبرون وجهات نظرهم، ويثقنون بما يقولون.

والأمة دائما في حاجة ماسة وملحة إلى الطائفة ذات المستوى العلمي الرفيع، والمعرفة الدقيقة بأحوالها، لتوجهها وتنير لها الطريق في كل الأزمان، وفي زمن التقلبات والتغيرات على الخصوص.

للغرب أحكام جاهزة عن الشرق

تعتبر تصوراته ناقصة ومشوهة في كثير من الأحيان وذلك للأحكام الجاهزة التي تسكن ذلك التصور، فتتنوع مواضيعها بين النساء الخاضعات، والإرهاب، وغياب كثير من القيم والتعصب والكراهية، وجرائم الشرف وصحة مخيفة، ووجوه ملتحية كالحة وديكتاتورية دموية وعدوانية. وعلى عكس ذلك يعطي الغرب لنفسه صورة إنسانية مكتملة، بعيدة عن كل الأصناف الناقصة التي يتصورها للإنسان الشرقي، فهو الديموقراطي، الحكيم، المتعقل، الحامل لحقوق المرأة، وللحريات الدينية، والكرامة الشخصية، هذه هي الصورة الكاملة للمتخيل الغربي عن متخيل الشرق، ويتلخص كل هذا في الأخير في الصراع بين عالمين متختلفين، ولهذا يلزم اليوم أن نجد صيغة للتعايش السلمي بين شعوب الأرض، كلها وترك التصورات المهينة للآخر، مستغلين ظروف السلم والتفاهم التي يرغب فيها الجميع، ويدعون لها، وبذلك لن يعود للصراع الذي دام زمنا طويلا وجود بارز إذا حللنا أصوله وعرفنا آلاته الخفية التي تحركه منذ زمن بعيد.

بعض الدراسات العميقة للأصول الفكرية، المتعلقة بالمخيال تثبت للعلماء الغربيين بما لا يدع مجالا للشك بأن الحضارات الإنسانية هي وجوه تشابه الإنسان وتكافئه، وإن اختلفت في مظاهرها الخارجية الظاهرة؛ والغريب أنه رغم كل هذا الذي كذَّب ما كان يعتقده الغرب من أن هناك إنسانيتين متطورة وأخرى غير متطورة، أوجد المستعمر لنفسه مبررا جديدا يقول إن على الشعوب الأوروبية ذات الحضارة المتقدمة التي أسعدت الإنسان، أن تأخذ بيد الشعوب الأخرى، لتعينها على التقدم، والسير للوصول إلى الدرجة العلمية والمعرفية والحضارية التي وصلت إليها.

الإنسانية الجديدة

عينت بعد الاستقلال أستاذا بثانوية مولاي إدريس وكنت أدرس بها مادة الترجمة؛ وذات صباح نودي علي لحضور مجلس المدرسة الذي ينعقد بمكتب المدير، وكان فرنسيا. أخذ المدير يتكلم في مواد عدة، وفي الأخير قال لقد أنهينا الجدول الذي أعددناه، ولم يبق إلا موضوع واحد يخص التلميذ الفلاني الذي أساء الأدب على الحارس العام، وكان قد ضبطه يدخن في أحد الممرات أثناء الاستراحة؛ لذلك سنوقفه عن الدراسة ثلاثة أيام. فأخذ الحارس العام يحتج ويظهر عدم موافقته التامة على هذا القرار الذي لم يكفه. وتابع الحارس احتجاجه وإنكاره. قال المدير وكذلك الأساتذة الفرنسيون الحاضرون إن طرد هذا التلميذ 8 أيام جد كاف، يعني إن مددوا المدة أكثر من ذلك فسيظلمونه، لكن الحارس الذي بقي يعبر عن غضبه وعدم استراحته لذلك القرار قال: إذا لم يطرد هذا التلميذ فسأطلق زوجتي؛ فاستغرب المدير والفرنسيون ذلك، وصاروا يتساءلون عن العلاقة بين التلميذ وزوجة الحارس العام، قال الحارس العام: الأستاذ التازي يشرح لكم معنى هذا. فأوقعني في معضلة كبيرة، لأني مضطر أن أشرح لهم أن التلميذ أساء إليه كثيراً وأغضبه فحلف في الحين بالطلاق الثلاث، وعليه أن يطرد من المدرسة.

وسألوني: هل هذا صحيح؟ قلت: نعم. ولما كان هذا الحارس عزيزا على المدير الفرنسي، لأنه يعينه كثيراً في تسيير المدرسة، أخذ المدير يبحث عن الحلول للخروج من هذا المأزق حتى لا تتطلق زوجة الحارس. وبعد أخذ ورد، اهتدى المدير إلى الحل، وهو أن ينقل التلميذ إلى ثانوية مولاي ارشيد، ليتم فيها سنته الدراسية، كأنه مطرود من مولاي إدريس، وسألني هل هذا الحل موفق، فأجبت بالإيجاب؛ فانفض المجلس ذلك اليوم. وفي الغد كنت ألقي

درسي، فإذا بالحارس الفرنسي يدخل علينا القسم مرتعبا خائفا وهو يقول ويردد: إلى مكتب المدير إلى مكتب المدير الذي قصدته مسرعا. وما إن أخذت أقترب منه حتى رأيت واحدا بلغ منه الهيجان مبلغه، وهو يصيح وبيده ورقة بيضاء: هذه بطاقة المقاومة التي طردنا بها الحماية، هاهم أبناؤها يعودون لطرد ابني من المدرسة بعد الاستقلال، أقسم أنه إذا أدى الأمر للقتل من جديد فسأقتل مرة أخرى.

واقتربت منه على حذر، وسألني: من تكون أنت؟ قلت له: أنا على علم بكل ما وقع، وسأشرح لك إذا رضيت. وبعد مذاكرة قصيرة دخلنا إلى مكتب صغير كان مفتوحا قربنا؛ فقلت له: الأمر يتخلص فيما يلي: إبنك أساء الأدب كثيراً على كبير الحراس الذي غضب غضبا لا حد له، وأقسم أن يطرده من المدرسة. وأنت تعرف أن من أقسم بالطلاق الثلاث، ولم ينفذ قسمه فإنه يلزمه أن يطلق زوجته طلاقا بائنا، ولا تحل له حتى تنكح زوجا غيره. فهل يرضيك أن تطلق هذه المرأة ولها ستة أبناء؟ قلت له: إن ابنك سيدرس في ثانوية مولاي رشيد، وهي أخت ثانويتنا حلا لهذا المشكل، وسيعود إلى الثانوية في فاتح أكتوبر المقبل.

قال لي: أتعاهدني على ذلك؟ فأجبت بالقبول. ثم خرجنا قاصدين مكتب المدير الذي كان قد أغلق الباب عليه، خوفا من أن يصيبه مكروه. وبعدما شرحت له ما وقع، تعهد هو أيضا أمام أب التلميذ بما التزمت به، وعندئذ أعلن الأب عن رضاه وقصد الباب. ولما ودعته عدت إلى مكتب المدير الذي كان بجانبه الناظر الفرنسي العام، فشكراني وعبرا عن رضاهما، ثم التفت المدير إلى الحارس العام قائلا: في المستقبل لا تعد لمثل هذا القسم الذي تسبب لنا في هذه الصعوبات وكاد يزهق أرواحا.

حالة العصر

قضية تدريس العلوم الرياضية والفيزيائية، في العلوم الرياضية والفيزيائية في الثانوية بأية لغة.

. تعلمنا في الثانوي عامة مزدوج اللغة، تسير فيه اللغتان العربية والفرنسية على نفس المستوي، الذي يتكامل وتصل فيه المعرفة إلى نفس الدرجة مع الزمان. وهي خاصية وصلتها المدرسة المغربية، حينما درستنا بعض المواد باللغة العربية ووصلت إلى معرفة لا بأس بها باللغة الفرنسية، مكنت من تدريس العلوم في الجامعة بهذه اللغة التي ينصرف إليها طلبة هذه العلوم الرياضية والفيزيائية وغيرها، انصرافا كاملا يصل بهم في معرفتها إلى حد قوي، يجعلهم إن أرادوا السير بعيدا في الدراسة العليا يبحثون، بل ينشرون أبحاثهم عندما يقومون بها، وهم في نفس الوقت يدرسون العلوم الرياضية والفيزيائية باللغة العربية في الثانوي، لذلك نقول بناء على هذا كله إن الأمر ليس صعبا كما كان يتخيله الناس ومازالوا، فهؤلاء الأساتذة يمكنهم ولا يصعب عليهم بالمرة:

أولا: أن يلقوا الدرس بداية باللغة العربية كما يفعلون الآن، ثم يعيدونه في نفس الوقت باللغة الفرنسية، مشيرين ومحققين لما أعلنوه أولا باللغة العربية، ومرة ثانية باللغة الفرنسية التي لا يصعب عند ذاك على الطلبة أن تتعمق القواعد لديهم بها.

ثانيا: وهذا العمل يجعل اللغتين متساندتين متواكبتين في نفس المستوى.

ثالثا: وعند ذاك يمكن القول إن الدرس علمي ولغوي في نفس الوقت: فما يفهم بلغة أو ما يتأخر فهمه بلغة، يتم تحقيقة باللغة الأخرى. وهذه

الخاصية المتكاملة لا تتوافر لأمة أخرى، فيجيب أن نغتنمها ونزيل هذا الخلط الذي لا يوجد إلا في أذهاننا .

رابعا: أما التمارين التابعة فسيشرف عليها الأستاذ صياغة وكتابة وجوابا بكل من اللغتين .

خامسا: في الامتحانات تعطي النصوص باللغتين معا، ويحدد للتلاميذ القدر الذي يجيبون عليه بكل لغة، للتأكد من معرفتهم للغتين معا، وقدرتهم على الجواب بإحداهما أو بالأخرى.

سادسا: إن هذا الاقتراح لمن شأنه أن يقوي الدراسة في مدارسنا، ويفتح أذهان طلبتنا ويقوي معلوماتهم، لأنه سيجعلهم حقيقة مزدوجي اللغة لا في العلوم وحدها، ولكن في غيرها من اللغات. نعود فنقول، إن المدرسة المغربية في واقعها الحالي لديها من الإمكانيات ما ليس لغيرها، لأن جميع أساتذتها يستطيعون تدريس وأداء هذه المهمة خير أداء، إذا ما اهتموا بهذا الجانب الاهتمام الكامل؛ وبذلك تكون المدرسة المغربية سباقة في هذا الميدان، تنشئ العقول المتمرنة على البحث والتنقيب، لأن لتلاميذتها من القوة والفضول العلمي ما يؤهلهم لإنجاز ذلك بسهولة وعفوية ليستا متوافرتين لغيرهم.

أخذتني سنة من النوم

أخذتني سنة من النوم، ورأيت فيما يرى النائم أنني في وسط جماعة من الناس، تتجه كلها نحو جهة واحدة في هدوء واطمئنان. ولاحظت في يدي أحدهم صحيفة، فأخذتها منه وانتبهت إلى تاريخها، فإذا به يبعد عن تاريخنا الذي نعيش به بزمن بعيد جدا، وسألت أحدهم فأجابني بأنهم يقصدون المركبة السماوية التي بناها الإنسان، للخروج من هذه الأرض، والابتعاد عما فيها من ظلم وطغيان وفساد.

وتابعنا السير، فإذا بي أرى مركبة طولها بحجم جبل، كما تستطيع أن تقطع في مسيرتها مسافة لا حصر لها؛ وتتحرك بطاقة جديدة لا تنتهي ولم تعرف الأعصر مثلها، وكان الجميع يدخلونها رجالا ونساء، كبارا وأطفالا، لا فرق بين الأبيض والأسود والأصفر منهم والأسمر، وقد حملوا معهم كل شيء سوى الأسلحة المميتة المدمرة، لأنهم يبحثون عن عالم جديد ليس فيه طاغية يحكمهم رغم أنوفهم، ولا جبار يسترقهم بأي صفة من الصفات رغما عنهم، ولعلهم يجدون في الفضاء آثارا لإنسانية أخرى تعيش في رحابة ونعيم وتستقبلهم. إن المركبة مجهزة بمسبار علمي حديث يسير في الفضاء للالتحاق بأحد المدنبات الذي سيمر قريبا بالمركبة، وستندمج به وتسير في عالم الفضاء إلى عوالم أخرى ربما لا نتخيلها، ولكنها في الحقيقة ستعرف نجاحا لا تجربة في أرضنا، وستستمر تجاربه متجددة ربما إلى ما لا نهاية له.

أســـرة الـتــازي

في موروثنا العائلي أننا عرب من شمال مدينة وجدة، وقد قدمنا إلى فاس منذ عدة قرون، مارين بمدينة تازة، التي سكناها لوقت قصير؛ وكانت العادة بفاس حين ذلك، أن القادم إليها يعرف بالجهة التي ورد منها. فكان هناك المراكشي والسلاوي والسوسي وغيرهم.

كانت أسرتنا تشتغل دائما في مادة الحرير، التي توزعها في أسواق فاس، يقتنيها النساجون الموزعون في الأحياء. وكانت لأبي رحمه الله وعماي خبرة تُضاهى؛ بحيث كان باشا فاس، ابن البغدادي؛ إذا وفد عليه متداعون في كل موضوعات الخيوط القطنية والصوفية والحريرية، يستدعيه ليستشيره في الموضوع، وهو في العشرينيات من عمره. فإذا نطق أبي برأيه يكون ذاك هو الحكم. إذ يقول الباشا للمتداعين: سمعتم ما قال المخزن، ويلزمهم به.

وكانت لأسرتنا منذ أكثر من قرن، علاقة وطيدة بالعائلة الشريفة بفاس؛ يحبونها ويقدرونها ويحترمونها، وخصوصا الأسرة الوزانية الشريفة، التي كان أبي وأجدادي يحبونها على عادة المغاربة؛ حب تَشَرُّعٍ لا تشيُّع. كان المقدم والفقراء على اتصال وثيق دائم؛ قد يجتمعون كل يوم بعد صلاة المغرب بزاويتهم المعروفة إلى اليوم بزاوية الحفرة بزاوية سيدي قاسم بن رحمون؛ يقرؤون القرآن والأوراد، ويعرفون أخبار بعضهم البعض؛ فكانوا بذلك في شبه نقابة حية، يتعاونون ويتآزرون ويحضرون إلى محتاج أحدهم كل أنواع المعونة اللازمة على يد المقدم الذي يعتبر الواسطة الفاعلة بين الجميع. أما العلاقة مع الشريف فكانت لها حدودا واعتبارات، تعارفوا عليها وتوادعوا منذ زمن قديم.

. مثال ذلك أن الشيخ أرسل لأبي يقول له إن أخته قد توفيت؛ فجمع أبي الجماعة وقصد منزل الشيخ، وشارك مشاركة في تجهيز الشريفة والقراءة عليها ومصاحبتها إلى قبرها.

. ومرة أخرى أرسل الشيخ يقول له إنه يريد تطليق زوجاته؛ فصاح أبي في وجه المبعوث قائلا: سلم على الشيخ، وقل له هذا لا يعنيني.

. وكان الفقراء يزورون في بعض السنين وزان، ويحملون للشيخ وذويه هدايا كثيرة؛ فيستقبلهم الشيخ ويستضيفهم لعدة أيام؛ وقد يستقبلهم في منزله الخاص، ويقدم لهم من الأطعمة ما لذ وطاب. وفي وزان أيضا يلتقون بباقي "الفقراء" القادمين من جميع أنحاء المغرب، ومن الجزائر وتونس، لأن محبي هذه العائلة كانوا كثيرين؛ لهم وجود ملحوظ في كل أرجاء العالم الإسلامي.

وفي تراثنا العائلي، أن أحد أجدادنا، كان يعمل فقيها لأحد أبناء السلطان مولاي محمد بن عبد الله، فغضب السلطان عليه، فهرب والتجأ إلى ضريح سيدي أحمد الشاوي، حيث لا يمكن لأحد أن يصل إليه بسوء. وبعد وقت طويل، قرر الهرب ثانية؛ وأثناء نزوله في الليل من السطح، سقط وكسرت رجله. ولما تولى السلطان مولاي محمد بن عبد الله الأمر بحث عنه وأرسل في طلبه؛ ومند ذلك الوقت صار يعرف بالفقيه الأعرج. تذكرت شخصيا هذا يوم عينني المرحوم جلالة الحسن الثاني بفاس سنة 1975، عميدا على كلية الآداب والعلوم الإنسانية حيث بقيت لمدة 16سنة، لم يلق مني جلالته ما يغضبه، مثلما وقع لجدي الفقيه الأعرج مع جده الأعلى مولاي عبد الله بن إسماعيل. رحم الله الجميع.

المحتويات

مقدمة..... 3

ثقافتنا والعولمة..... 7

المسيد الأول والثاني 23

ـــ المسيد الأول 25

ـــ المسيد الثاني 26

ـــ المقاومة 28

ـــ حي اليهود (الملاح) 29

ـــ فاس القرويين..... 29

فاس..... 37

ـــ الميلاد 44

ـــ الأندلس 49

ـــ التعبير والإبداع 50

ـــ الفضاء المغربي 52

ـــ المنبوذون 55

ـــ المعلمة 56

ـــ المهاجرون 59

ـــ طريق الانعتاق 61

ـــ التعليم 67

ـــ المدرسة الحديثة 71
ـــ تعليم الفتيات 73
ـــ قدماء التلاميذ 75
ـــ أكاديمية العلوم 78
ـــ الأكاديميات 79
ـــ الترجمة في الجامعة 81
ـــ التقييم العلمي 83
ـــ الجامعة المغربية 84
ـــ الجامعة 87
ـــ الطلبة 92
ـــ جامعة القرويين ماضيا ومستقبلا 93
ـــ شعبة الفلسفة 96

الأسر العالمة..... 99

ـــ المدينة الجديدة بفاس 102
ـــ الانغلاق المغربي القديم 103

استجابة لمتطلبات العصر..... 105

ـــ الحماية 107
ـــ الحياة الثقافية في فاس 108
ـــ الصراع الاجتماعي 114

ـــ نداء توجيهي إلى الطلبة 115
ـــ جامعة القرويين ودورها التاريخي 115
ـــ رسالة جامعة القرويين اليوم 116
ـــ القرويين ومحيطها 117
ـــ التكوين والتأطير 118
ـــ الثقافة والتثقيف 118
ـــ الحداثة ومفاهيمها 120
ـــ جامعة القرويين جوهرة في جبين المغرب..... 125
ـــ الترجمة..... 127

الثقافة بين ماضيها وحاضرها ومستقبلها..... 131

ـــ الحوار 137
ـــ ما علاقة المثقف بالحداثة؟ 138
ـــ ما هي سمات المثقف 139
ـــ ثقافتنا وهويتنا الوطنية 140
ـــ حوار الحضارات والثقافات 142
ـــ مصر معلِّمة العالم العربي 144
ـــ مناهج التكوين الفكري 144
ـــ الأمازيغية هي لغة المغاربة الأولين 145
ـــ اللهجة الدارجة 146
ـــ الجزائر..... 151

ـــ هتلر..... 153
ـــ الفرانكفونية..... 155
ـــ الأسر الشريفة بفاس 156
ـــ التعليم عامة 157
ـــ الحرب الإلكترونية 160
ـــ الخيال..... 161
الزيتوني ـــ ناتانياهو ـــ أمريكا..... 162
ـــ الشهادات العربية الثلاث 166
ـــ الطبخ الفاسي 167
متفرقات..... 171
ـــ اللهم أهلك من أهلكنا 173
ـــ المساجد في أوروبا 174
ـــ النصوص باللغة الفرنسية 174
ـــ إليادة العرب 175
ـــ التعليم / المدرسة 176
ـــ تكوين الأئمة 179
ـــ مآدب الأستاذة الفرنسيين 181
ـــ قضية الطالب ومنحة العراق 183
ـــ لا بد للمسجد من إعانة 184
ـــ حوادث **1944** 186

ـــ قضية الأساتذة المتدربين..... 187

النهضة..... 191

ـــ الثقافة المغربية 194

ـــ الغلو الديني والتطرف الإيديولوجي 195

ـــ بين توزيع الثروة وتوزيع العلم 195

ـــ للغرب أحكام جاهزة عن الشرق 198

ـــ الإنسانية الجديدة 199

ـــ حالة العصر 201

ـــ أخذتني سنة من النوم 202

أسرة التازي..... 205

المحتويات..... 207